7170

بربارا كارتلاند

www.rewity.com/vb
بلا عنوان

سحر الصحراء

دار الأميرة

بربارا كارتلاند

www.rewity.com/vb

سِحْرُ الصَّحْراء

ترجمة

غسان شديد

مجموعة بربارا كارتلاند القصصية المعربة

بإشراف

جورج أبي صالح

دار الهلال

١٩١٠

قَفت عربة الخيل المكشوفة التي يجرُّها جوادان أمام باب الڤيلا؛ وترجَّل منها أحد النبلاء. وفيما كان يدفع أجرة الحوذيِّ الذي قاده من محطَّة كانَ، تناهى إلى مسامعه صوتُ موسيقى ينبعث من المنزل وشاهد فوانيس من ورق ملوَّن شفَّاف تزيِّن الحديقة.

أسرع الخادم ليحملَ الحقيبة الجلدية الوحيدة التي ينقلها المسافر ويضعها في الداخل.

ورفع الحوذيُّ يده إلى قبَّعته شاكراً على البخشيش السخيِّ.

ابتعدت العربة وتوقَّف السيِّد لحظةً عند أسفل الدرج، بينما المتوسِّط يتلألأ تحت ضوء القمر خلف أشجار السَّرو الكبيرة الدَّاكنة.

كان المشهد غايةً في الجمال ورجْعُ الموسيقى يُضاعف بالطبع من رومنسيَّة الأجواء. ثمَّ، التفتَ وصعد الدرج. كان كبير الخدم ينتظره في البهو.

ـ عِمتَ مساءً، سيِّد تايرون، قال مرحِّباً وعلى وجهه ابتسامة

الخادم الذي يشغل وظيفته منذ مدَّة طويلة. كنَّا في انتظارك البارحةَ مساءً.

ـ نعم، أعرفُ ذلك، رونالدسون، قال القادم الجديد. إنَّ القطارات الوافدة من الشَّرق تتأخَّر دوماً وقد فوَّتُّ القطار الذي كان عليَّ الإنتقال إليه في باريس.

ـ سوف يكون سرور السيِّدة عظيماً عندما تعلم بوصولك حَقاً.

ـ لا تُعلِمها بشيء قبل أن اغتسلَ وأُبدِّل ثيابي، قال تايرون ستروم. أرى أن ثمَّة استقبالاً هذا المساء.

ـ نعم، سيِّد تايرون. هناك عشاء راقص للشباب.

وشابت صوتَ رئيس الخدم مسحةٌ خفيفةٌ من الإستخفاف ممَّا أضحك تايرون ستروم. كان يعرف أنَّ رونالدسون، الذي أمضى سنوات عدَّة في خدمة أخته، يستهجن ما يعتبره «لقاءات من دون رسميَّات».

ـ دلِّني على المكان الذي سوف أنامُ فيه، قال مقترحاً. إنَّ متاعي ضئيل وأشكُّ في أنَّني سأكون أنيقاً بما يكفي لهذه السَّهرة.

ـ سيِّدي، لمَّا علمتُ بأنَّك ستمكث، على الأرجح، عند السيِّدة شقيقتك، أجاب رونالدسون، أحضرتُ من لندن أحد ملابس السَّهرة خاصتك.

إبتسم تايرون ستروم:

ـ رونالدسون، انا ممتنٌّ لاهتمامك بي دائماً بهذه الطَّريقة. لكم اتمنّى اصطحابك معي في رحلاتي!

ـ فَلْتَحْمِني السَّماء من ذلك، سيِّد تايرون! هتف رئيس الخدم. لطالما أحببتُ أن احيا حياتكَ يوم كنتُ شاباً؛ بيد أنّي اليوم تخطَّيتُ عمر المغامرات.

ضحك تايرون ستروم بهدوء وتبعَ رونالدسون الذي عبر ممشى الطبقة السُّفلى بخطوات وئيدة فيها بعض العظمة، مارّاً أمام عدَّة صالونات.

عرفَ أنَّه سوف يحتلُّ الغرفة التي درجَ على سكنها في كلِّ مرَّة يستفيد فيها من ضيافة شقيقته، لا لأنَّه كان يعتمد على معاملةٍ مميَّزة؛ فالواقع أنَّه كان على الدّوام غير دقيق في مواعيد وصوله أو مغادرته. ثم انّ رونالدسون كان يعتبر أن عدم استقبال الزائر حسب الأصول هو بمثابة إهانة شخصية له.

ووصلا اخيراً إلى غرفة تقع خارج القيلاً لكنَّها متَّصلة بها عن طريق ممرّ طويلٍ مسقوف.

كان المالك السَّابق كاتباً، يُنشد العزلة، لذلك شيَّد لنفسه ما يشبه الشاليه الصغير. ولمَّا كان البناء يقع على حافة هاوية، فقد كان يكشف في الصَّباح منظراً رائعاً على البحر والشاطىء.

كانت قيلاً ليدي ميريل تقع على قِمّة تلَّة وتحتلّ موقعاً لا يضاهيه موقع. إلاَّ أنَّ هذا الشاليه الصغير، الذي اعتبره تايرون ستروم دائماً كمُلْك له، كان اكثر جمالاً.

ـ كلُّ شيء أُعدَّ من أجلك، سيِّد تايرون، قال رئيس الخدم

بارتياح. سوف ابعث إليكَ بخادم ليُوضِّب لك حقيبتك. إنَّه فرنسي لكنَّه يُتقِن عمله.

ـ شكراً، رونالدسون. لقد حملتُ القليل معي لكنّ يختي يرسو الآن في المرفأ حسبما اظنُّ؛ وعلى متنه اغراض لي سوف أرسل غداً من يَحضرها.

ـ اعتقدُ سيّدي، انَّك سوف تجدُ هنا كلَّ ما ترغب فيه لهذه الليلة.

ـ انا متأكِّد من هذا الأمر.

وفيما هو يتكلَّم، صعد تايرون ستروم الدَّرج الضيِّق الذي يقود إلى صالون الغرفة.

وما إن دخل الغرفة الجميلة التي كان يسود فيها اللّون الأبيض حتى رأى على إحدى الكراسي بذلته وقميصه مُنَشّاةً. فنظر إليهما مستاءً إذ فكَّر في الإنزعاج الذي سوف يُعاني منه بعدما أمضى الأشهر الثلاثة الأخيرة وهو لا يلبس سوى ثياب عمليّة مريحة.

بالواقع، إن مهمّة سريّة، وخطرة احياناً، أُوكلت إليه في الشَّرق. وهو سافر متخفِّياً بحيث لم يكن جواز سفره يدلُّ على اسمه الحقيقي.

كان قد ارسل تقريره الى باريس اللَّيلةَ الفائتة، إذ أمضى القسط الأكبر من السَّهرة في إعداده، منذ وصوله. وكان يعرف انَّ عدداً من الأشخاص في لندن سوف يُسرُّ جداً من العمل الذي انجزه.

كان تايرون ستروم دائماً رجلاً غامضاً في نظر زملائه، وأصدقائه وحتى شقيقته التي يعبدها.

عمل في وزارة الخارجية طيلة سنوات. ثمَّ، فجأةً، ودون إعطاء أيّ سبب، راح يُسافر في أصقاع الدنيا الأربعة، لا يترك خلفه أيّ عنوان، وحين يعود يتحفّظ حول ذِكر الأماكن التي زارها.

كان الكثيرون لا يرون فيه سوى رحّالةٍ اعتاد السَّفر. فقط في مكتب سرّي في وزارة الخارجيّة، كان اسم تايرون ستروم يُلفَظ بخشيةٍ واحترام.

وكان بإمكانه الآن أن يسمح لنفسه بالتخلّي عن الضغط الذي لازم عمله طيلة تلك الأشهر الأخيرة؛ فقد شعر فجأةً بالإعياء.

وكان يعلم أن ردَّة الفعل هذه طبيعيّة؛ بعد أن كان من واجبه أن يحتاط باستمرار ويأخذ جانب الحذر، فلا يدخل غرفةً إلاَّ ويفكّر في أنّ أحدهم يختبىء خلف بابها، ولا يتمكّن من الكلام إلاَّ إذا اختار كلَّ كلمة يتفوَّه بها بعناية تامة.

كلُّ شيء انتهى الآن، قال في سرِّه. فقد كان قراره حاسماً بأن يُرفِّه عن نفسه برفقة شقيقته هيلين وبألاَّ يقوم بأيِّ مشروع مستقبلي، إلاَّ إذا كان مجبَراً على القيام به.

كان قد بدأ بخلع ثيابه عندما طُرِق الباب. كان ذلك هو الخادم الذي أرسله رونالدسون.

ـ جئتُ أُوضِّب لك حقائبَك، سيِّدي، قال بالفرنسيَّة.

ـ شكراً، قال تايرون. ليس عندي سوى هذه الحقيبة.

وأشار بإصبعه الى المكان الذي وضع فيه الخادم الآخر الحقيبة، بالقرب من خزانة الملابس، ثمَّ ألقى بمعطفه على الكرسيّ، وولج الى الحمّام.

من مباهج فيلاّ شقيقته تلك الحمّامات الحديثة التي كانت نادرة الطراز في اوروبا.

إنّ الأميركيِّين، فكّر تايرون ستروم، يُشبهون الرومان الأقدمين قليلاً: لأنهم كانوا يُحبّون الإستحمام غالباً، فقد حرصوا على أن تكون منازلهم التي عاشوا فيها مزوَّدة بعدّة حمّامات فاخرة.

أما في اوروبا، وخصوصاً في انكلترا، فكان على المرء أن يختار عادةً بين مغطس ـ مَقعد مركَّز في الغرفة، تملأه أباريق نحاسيَّة ينقلها الخدم والعرق يتصبَّب منهم على امتداد الأدراج التي لا تُحصى ـ أو بين غرفةِ حمّامٍ تقع في طرف رواقٍ باردٍ طويل حيث ينبغي انتظار ساعات قبل أن يُنزِل الصّنبورُ ماءً تكاد تكون فاترةً.

كان تايرون ستروم، المتمدِّد في المغطس العميق المريح والسّاخن الذي وُضع بتصرّفه في جنوب فرنسا، يشعر بأنَّه لا يغتسل فقط من غبار الرِّحلة، بل أيضاً من حالات القلق التي جعلت من مهمته الأخيرة تجربةً رهيبة.

وفكّر في أنها كانت من أصعب المهام التي قام بها، وانَّ انجازها بنجاح يوليه الحقّ في عطلة طويلة يستريح خلالها من كل عمل. وكان يرغب في تمضيتها عند شقيقته، التي كانت

الوحيدة على قيد الحياة من أفراد عائلته المقرَّبين، والتي كان يكنّ لها محبة تُقابله إيَّاها بالمثل.

كانت الليدي ميريل أكبر من شقيقها بأربع عشرة سنة. وقد دلَّلته بعد وفاة والدتهما؛ يوم كان تايرون صبيّاً صغيراً.

كانت قد ترمَّلت منذ ثلاث سنوات، وليس لها سوى ولد وحيد تعبده، اسمه دافيد، هو لورد ميريل الجديد.

كان دافيد في أوكسفورد آخر مرَّة زار فيها تايرون ستروم أُخته. ولم يكن الخال وابن أُخته قد تقابلا منذ سنتين تقريباً. وكان تايرون ستروم سعيداً بأن يتعرَّف بالشَّاب من جديد، إلاَّ أنَّه ادركَ أيضاً أن لدافيد اليوم إحدى وعشرين سنة من العمر: لن تكون الفيلاَّ بمثل الهدوء الذي كانت عليه في الماضي. ما من شك في أن حفلات عشاء راقصة ـ كتلك التي يستهجنها رونالدسون ـ سوف تُقام ليلةً بعد ليلة؛ وفي هذه الحالة، سوف ينعم بالقراءة في الشاليه إلاّ إذا مضى لينام في يخته. لم يكن يرغب في أن يكون عضواً في الزمرة المتألِّقة والمرحة التي جعلت من الريفييرا إحدى المناطق الأوروبيَّة الأكثر مطابقةً لذوق العصر.

وإذا كانت مونتي كارلو، مذ فتحت أبوابها للاعبي القمار، قد اجتذبت دائماً المشاهير والنصّابين، فإنَّ الملك هو الذي جعل مدينة كانّ تُماشي العصر يوم كان لا يزال أمير الغال. وفي الوقت الراهن، كان النبلاء، ورجال السياسة والأعيان يفتّشون عن دُور لهم في ضواحي المدينة.

«أُريدُ أن أترك وشأني»، قال تايرون في سرِّه.

كان يعلم أنَّ بإمكانه الوثوق بشقيقته، فهي لن تحاول معاملته معاملة المشاهير، على عكس الكثيرين الذين حاولوا ذلك. والسَّبب بسيط: تايرون ستروم لم يكن فقط شاباً مثيراً للإهتمام، غنيّاً، ومتحدِّراً من عائلة عريقة، بل كان أيضاً جميل المحيّا، يشعُّ منه سحر وغموض لا تقوى النساء على مقاومته. وكنَّ بالتأكيد، لا يرتَبْنَ في نشاطاته التي غالباً ما يتورَّط فيها.

ثم انَّ ما من رجل كان بمقدوره تحقيق ما حقَّقه تايرون ستروم في السنوات العديدة الماضية دون أن تتطوَّر شخصيّته بحيث تجذب إليه الإهتمام والفضول أينما حلّ.

وفيما كان يُنشِّف جسمه بعد الحمَّام، كان لَيُخيَّلُ لمراقب محايد أنَّ هذا الجسم المشيق والرياضي يُشبه جسم إلهٍ إغريقي.

كان في أوج لياقته، ولمّا عاد إلى غرفته، لم يكن بوسع الخادم الفرنسي الذي كان في انتظاره لمساعدته في ارتداء ثياب السَّهرة غير أن يرمقه بنظرة إعجاب.

تحدث تايرون ستروم إلى الرجل بفرنسيَّة طليقة. وعندما لم يبقَ عليه سوى وضع دِثاره، صَرَف الخادم.

ـ لن تكون بحاجة إلى انتظاري.

ـ سوف أقوم بترتيب الغرفة فيما بعد، سيِّدي.

ـ شكراً.

انتظر تايرون ستروم خروج الخادم؛ أطفأ الأضواء وعبر الغرفة ليصلَ إلى الشُرفة مروراً بالباب ـ النافذة المفتوح.

كان يرغب في رؤية الجمال الممتدّ تحته ومشاهدة السماء المكوكبة.

لقد كان من شأن روعة المشهد أن تُدخل السَّكينة إلى نفسه، كما لو كانت يداً منعشة تمرّ على جبينه. كان عطر السَرَنْجة(*) والميموزا يعبق الأجواء. وكانت الجهنّميات(*) الأُرجوانية والغرنوقيّات(*) الزهريّة والعطريّة التي تعرّش على طول الشرفة تعجّ صباحاً بطنين النّحل.

كان كلُّ شيء هنا مألوفاً وهادئاً. إتّكأ على الدرابزين وأحسّ بنسمةٍ ناعمة تهبُّ من البحر. فتساءل إن لم يكن أحرى به البقاء هنا حالماً بدلاً من أن يوافي بقيّة المدعوّين.

فهو لن يكون مرتاحاً بين اولئك الشباب الضاجّين المفرطي الحيويّة، وتلك الجوقة الموسيقية، وسدّادات قناني الشمبانيا المتطايرة في الهواء. ثمَّ قال في نفسه إنَّ التغيير هو ما ينشده في نهاية الأمر.

كان قد ركّز تفكيره كثيراً على قضاياه والصعوبات التي اعترضت مهمته بحيث يلزمه بعض الوقت قبل أن يصير دماغه أقلّ انشغالاً وقبل أن تسترخي حواسه.

نظر نظرة أخيرة في ضوء القمر حيث تلتقي فضّة البحر المتلألىء بالأفق الضبابيّ، وتناهت إليه أصوات صادرة من تحته

ـ إسمعيني، نيفادا، أرجوكِ! من الواجب أن تَسمعيني!

(*) جنس نباتات بريّة وتزيينيّة (م)

كان الصوتُ صوتَ رجل فيه نبرةٌ من التوسُّل والإستغاثة. وقد شعر تايرون ستروم بذلك كإشارة خطر.

ـ فيما يتعلّق بي، فأنا لا أعرف تعبيراً مثل «من الواجب أن»، أجابت المرأة.

ـ نيفادا، إنكِ تتحاشيني، وهذا الموقف يثير جنوني! لماذا تبدّلتِ! لماذا تُعامليني بهذه الطريقة؟

ـ كيف ذلك؟

كان الصوت فاتراً بعض الشيء، وانتبه تايرون ستروم الى أن فيه لكنةً خفيفة.

ـ تعرفين تماماً ما أقصده. كنتِ غايةً في اللطف والوداد. وها أنتِ، بعدما حملتِني إلى السماء السابعة تُلقين بي إلى أعماق الجحيم.

ـ أواه، دافيد، كم هذا شاعري!

ـ تبّاً! ألا تُريدين أخذي على محمل الجد؟ أنا أُحبُّك،\يا نيفادا، وأنتِ تعملين على إفقادي صوابي.

وضحكت المرأة ضحكةً خفيفة.

ـ كم أنتَ مسرحي! لماذا يُردِّد الرجال الشيء نفسه دائماً؟ أجد مفرداتك محدودة تماماً.

ـ أنتِ تسخرين منّي؛ تُريدين الإمعان في إتعاسي. كيف يُمكن أن تكوني بمثل هذا الظُلم... والقساوة.

وضحكت المرأة من جديد.

ـ نواح... لا شيء غير النواح! أنا لا أفهم لماذا الرجال ليسوا راضين أبداً.

www.rewity.com

ـ كُفّي عن التكلّم دائماً على الرجال، صرخ دافيد بعنف. لا يهمّني ماذا تفكّرين بالرجال الآخرين. مشاعرك نحوي هي التي تهمّني. أنا أُحبّك، نيفادا، وأرغب في الزواج منكِ. لطالما طلبت منكِ ذلك، وإذا استمرّيتِ في الهزء منّي واعتباري دمية مضحكة، فأنا قادر على ارتكاب عمل لا تُحمَد عُقباه.

كان تايرون ستروم قد علم أن ابن أخته، دافيد ميريل، هو المتكلّم.

ـ دافيد، أنت الآن تُمثّل دوراً كوميدياً. سوف تجني ثروةً على المسرح! وهذا العمل الذي لا تُحمد عقباه، أتوق إلى معرفة فحواه!

وساد صمت، ثمّ قال دافيد ميريل بلهجة صارمة:

ـ إذا أردتِ الحقيقة كاملةً، فقد فكّرت في إطلاق رصاصة في رأسي.

عندها دوّت ضحكة رفيقته

ـ كم هذا سخيف! كنت أظنُّ أنك ستقوم على الأقل بعمل طريف! كلّ عشّاقي الهائمين في حبّي يهدّدون بقتل أنفسهم؛ لكنّهم لا ينفّذون تهديدهم أبداً.

ـ قد تُصابين بصدمة يوماً ما.

ـ صدمة؟ لا... بل قُلْ مفاجأة! قد يكون من الممتع رؤية جثة بلا حراك... فأنا لم أرَ مشهداً كهذا من قبل.

ـ نيفادا! لا تقولي هذا. أنا أُحبُّكِ. كم عليَّ ترديد هذا على مسامعك؟ احبّك بعنف. لا أنام من فرط التفكير بكِ. قولي إنك تقبلين بالزواج منّي. أُقسم أن أجعلكِ سعيدةً.

ـ الحقُّ يُقال إنكَ سوف تجعلني تعيسةً، أجابت نيفادا. بصراحة، يا دافيد، أنا لا أرغب في التكفّل بزوج ليس سوى صبيّ هستيري.

ـ أنا رجل، وبما أنكِ تتكلّمين على هذا المنوال، فسوف أُثبت لكِ ذلك!

وقام بخطوة نحوها.

ـ امنعكَ من لمسي! ـ كان الصوت مزمجراً إلى حدّ ما ـ أنا لا أسمح لأحدٍ بلمسي. أنا أحتقركَ لأنَّ الحب الذي تقدّمه لي لا يساوي شيئاً.

ـ ماذا تقصدين بذلك، سألَ دافيد.

ـ أنت ضعيف طائش؛ وإلاّ، لوجدتَ شيئاً تفعله بحياتك عوضاً عن أن تُفكّر في وضع حدّ لها. وأنا، لو تزوّجت يوماً، وهو أمرٌ أجده مستبعداً جداً، فاسمح لي بأن أقول لك إنني سأتزوّج من رجل يعرف كيف يتدبّر أمره بمفرده... رجل يأخذ ما توفّره له الحياة ولا ينهار عند أيّة بليّة.

ـ أَوَ تظنين أن هذا ما أقوم به؟ سأل دافيد بنبرة شرسة.

ـ اظنُّ أنك شاب، ليس عنده خبرة... ومثير للملل.

ـ مع أني أُحبُّكِ.

ـ هذا هو نوع الحبّ الذي لا أرغب فيه.

ـ مع أنَّ زمناً مضى كنتِ فيه تحبّينني على ما يبدو.

ـ كان ذلك قبل أن أعرفك عن كثب. هل تساءلت يوماً عمّا لديك تُقدّمه لامرأة... عدا لقَبَك، بالطبع؟

كانت نيفادا تتوخّى، بلا ريب، أن تكون جارحةً.

ـ إذا كان هذا هو الرأي الذي كوّنتِه عنّي، فليس عندي ما أضيفه، أجاب دافيد.

ـ لا شيء، قالت نيفادا برضى. إذاً، لا تزعجني في المستقبل. جِد لك امرأة أخرى يُمكنك أن تتباكى بالقرب منها؛ فثمّة نساء تعبدن الكلاب الصغيرة التي تنبح.

ابتعدت وهي تتكلّم، وسمع تايرون ستروم من فوق الشُرفة وقع كعب حذائها العالي على الطريق المبلّطة. ولمّا انحنى أكثر، تمكّن من رؤية ابن اخته وقد برز وجهه من ظلّ تُلقيه إحدى أشجار السَرو.

كانت علامات الحزن بادية على وجهه المشدود إلى البحر. ثمّ رأى تايرون ستروم الشاب يتناول شيئاً من جيبه. وإذ دفعته غريزة الرجل المعتاد على الشعور بالخطر، فقد سارع الى وضع رجله فوق الدرابزين ثمّ تعلّق به بيديه قبل أن يهبط أرضاً.

وأدرك ابنَ اخته. كان دافيد ميريل ينظر اليه، مشدوهاً، ومسدّسه في يده.

واقترب تايرون ستروم.

ـ مساء الخير، دافيد. يُخيّل إليّ أنني وصلت في الوقت المناسب، أليس كذلك؟

ـ خالي تايرون! صرخ دافيد أخيراً.

ـ بنفسه! أجاب تايرون ستروم بخفّة.

ثم أخذ المسدّس من يد ابن أخته ودسّه في جيب بنطاله.

ـ لم يكن عندي سوى التنصّت، قال بهدوء؛ فالإعلان عن وجودي كان ليُسبّب بعض الإزعاج.

جلس دافيد ميريل على إحدى كراسي الحديقة ووضع رأسه بين يديه.

ـ ما العمل، خالي تايرون؟ إنّها تُفقدني صوابي.

ـ هذا تقريباً ما فهمتُه.

جلس تايرون ستروم قرب ابن اخته وقال بعد لحظة صمت:

ـ لستَ ترغب في الاستماع إلى التّفاهات المعتادة في مثل هذا الظرف، وليس عندي نيّة في إلقائها. هل يمكنني على الأقل اقتراح بديل، بدلاً من أن تبقى هنا تعيساً؟

ـ وما العمل؟ سأل دافيد ميريل، وقد بانَ عليه البؤس. بدا لي في البداية أنها تُحبّني ثمّ راحت تجد الرجال الآخرين أكثر جاذبيّة منّي. أحبّها، وأعجز عن التفكير في شيء آخر. وبما أنها لا ترغب في الزواج منّي فمن الأفضل أن أموت!

ـ قلتُ لك إنّ عندي لكَ اقتراحاً آخر، هل تودّ الاستماع إليّ؟

ـ حسناً.

لم تكن النبرة لطيفة.

ـ كنتُ في باريس البارحة مساءً، قال تايرون ستروم. نزلتُ في فندق ريتز حيث التقيتُ ثلاثة أصدقاء قدامى كانوا يستعدّون للذهاب في رحلة صيد كبيرة.

كانوا في البداية أربعة، بيد أنّ احدهم اعتذر بحيث طلبوا منّي الإنضمام اليهم.

ولمّا بدا الإهتمام على ابن اخته، أضاف تايرون ستروم:

ـ إنّ هدفهم ليس الصيد فحسب؛ بل يرمون أيضاً إلى

استكشاف مناطق في افريقيا الوسطى يجهلها الناس جهلاً مطبقاً.

سكت فجأةً ثم أضاف:

- ... أفهم بالتأكيد أنَّ هذا النوع من المغامرات قد لا يثير اهتمامك، ولكنّي أؤكد لك أنَّ رفاقي في غاية اللطف. إنَّهم من نخبة الصيَّادين ومن الرحَّالة المجرَّبين.

- هل تعرض عليَّ الإنضمام إليهم؟ سأل داڤيد بصوت كئيب.

- ولِمَ لا؟ وإلاَّ، فبإمكانك طبعاً أن تبقى هنا ترزح تحت مزيد من الحزن محاولاً إقناع امرأة لا تُريد كما يبدو تغيير رأيها فيك. وأنتَ، في قرارتك، تعرف تماماً أنَّها ليست من الطراز الذي يغيِّر رأيه.

كان تايرون ستروم، بعد المحادثة التي سمعها، يرى أنَّ نيڤادا، أياً تكن شخصيَّتها، هي شابة كريهة إلى حدّ كبير، وينبغي على ابن اخته تجنّبها. بيد أنّه كان على جانب من الفطنة والتحسّس بمشاعر الآخرين بحيث لا يذمّ بأي شكل من الأشكال الفتاة التي يهواها داڤيد.

- هل تعتقد أنَّ نيڤادا سوف تتحسَّر فيما لو ذهبتُ مع أصدقائك؟

سأل داڤيد بعد لحظة.

- أعتقد أنَّ النساء كلهنّ تتحسَّرن في اللحظة التي يختفي فيها أحد المعجَبين، أجاب تايرون ستروم بحذر، وأعتقد أيضاً

انك سوف ترى الحياة من منظار مختلف تماماً بعد رحلة من هذا النوع.

- هل تريد القول إنَّ عليَّ أن أنسى نيڤادا؟ إنَّ أمراً كهذا لن يحدث أبداً، قال داڤيد بقوَّة.

- ليس هذا أبداً ما رميت إليه، أجاب الخال. أردت أن أقول ببساطة إنك ستصير أكثر مثاراً للإهتمام. يقولون إنّ السفر يفتّح الذهن. وهذا القول مجرَّد ترداد. إذ أنَّ الأمر يتعلّق كثيراً بنوع الرحلة التي نقوم بها.

ولكن، ثِق بأن افريقيا تسنح جملة من الفرص وتُشكّل معينَ معرفة لا يخطر في بال أحد.

- أعرف ذلك، تمتم داڤيد.

- وأؤكّد لك أمراً، قد لا يكون مهماً في نظرك، وهو أن مؤسسة الجغرافيا الوطنيَّة لا تعتبر الذين يقومون بمثل هذه الإستكشافات روّاداً فحسب، بل بمثابة أبطالٍ أيضاً.

- لو ذهبتُ، قال داڤيد كمن يُحدِّثُ نفسه، لفهمتْ نيڤادا انني لست ذلك الشخص البليد والكسول الذي تتصوَّر.

وساد صمت قبل أن يُتابع تايرون ستروم

- ثمّة صعوبة واحدة.

- أية صعوبة؟

- عليك الإنطلاق في الغد! باستطاعتي الإبراق إلى أصدقائي لإبلاغهم بسفرك، لكنني اعلم أن المركب الذي سوف يستقلّونه من مرسيليا يُبحر غداً مساءً على أبعد تقدير.

وساد الصمت من جديد، صمت طويل. وأخيراً، قال دافيد بصوت مرتفع:

ـ اذهب! تبّاً، يا خالي تايرون، أُريد الذهاب! وبما انه ليس بوسعي غير هذا، فسوف أُثبت لنيفادا أنني لا أعيش لتسليتها فحسب.

ـ انا موقن بأنَّ قرارك حكيم، يا دافيد.

ونهض دافيد قافزاً

ـ هل بإمكانك أن تقول لي عمَّا أحتاجه من ثياب؟

ـ الأمر سهل. ثمَّ إنَّ لديّ بنادق على متن يختي. قد تلزمك.

ـ سوف تعيرني إيَّاها؟ إنك لطيف للغاية، خالي تايرون.

كان في صوت دافيد نبرة إثارة لم تَخْفَ على خاله. وفجأةً، قال الشاب وقد تغيَّر صوته:

ـ ووالدتي! ماذا عساها تقول؟

ـ أقترح عليك أن تترك أمرها لي، أجاب تايرون ستروم. لا تقل لها شيئاً قبل أن احدِّثها أنا في الأمر. آه! ذكَّرتني، أنا ضيفها وعليَّ موافاتها في الحال. فلنذهب معاً، ولكن إسمح لي أن آتي بدثاري أوَّلاً.

ـ سوف آتيكَ به، قال دافيد ميريل. إنَّه في غرفتك؟

ـ نعم، على إحدى الكراسي.

توجَّه دافيد نحو الشاليه، ثمَّ توقَّف.

ـ خالي تايرون، إعلَمْ ان طريقة قفزك من الشرفة فيها الكثير من الرشاقة. ولو كنتُ مكانك لفكَّرت في الأمر أكثر من مرة قبل الإقدام على ذلك.

ـ لقد أدهشك، بالتأكيد، خالك العجوز المتهدِّم، قال تايرون ستروم، وفي صوته رنَّة ساخرة.

ـ لم أقل هذا.

ـ لكنَّك فكَّرت في ذلك، بدون شك. بيد أنَّ الأمر ليس بذي أهمية. إذهب واحضر دثاري ولتذهب للقاء والدتك.

* * *

ـ تايرون، أوَليس من الخطر بمكان أن يذهب دافيد مع اولئك الرجال إلى افريقيا؟

ـ من المفروض أن ينضج، هيلين، أجاب أخوها؛ ثمَّ انني استشففْت مما سمعت انه يأخذ على محمل الجد ما أعتقدُ انه أول مغامرة عاطفية يمرّ بها.

وتنهَّدت هيلين ميريل. كانت لا تزال في غاية الجمال، وهي في الخامسة والأربعين من عمرها، وكان عدَّة رجال يرجونها الزواج منهم، لكنها كانت تصدّهم كلّهم لأنها كرَّست نفسها لولدها الوحيد، وكان أخوها على علم بذلك تماماً.

ـ نيفادا فتى أُرْدِن غاية في الجمال، تنهَّدت قائلة. يمكننا أن نفهم دافيد وعدداً كبيراً من الذين افقدتهم صوابهم.

ـ لقد بدت لي ممّا سمعتُه من حديثها مع دافيد أنَّها نموذج مقيت من تلك النسوة المعاصرات، الباردات العاطفة، والطائشات اللواتي أصادفهنَّ منذ بعض الوقت، أضاف تايرون ستروم.

وبدت الدهشة على وجه شقيقته.

ـ تعتقد هذا لأنك لم ترها أبداً.

- في الواقع، أين هي منذ انضممتُ إلى مدعوّيك؟

- لقد ذهبت في سيارة مع جيران آخرين. لم أكن أرغب في ذلك، حقيقةً، غير أنّها لم تطلب إذناً منّي.

- بالرغم من انها تقيم عندكِ؟ يا لتصرّفها المعيب!

وضحكت ليدي ميريل.

- أنت محافظ جداً، يا تايرون. إن الأميركيات شأن نيڤادا تتمتّعن بحرّية مرفوضة للفتيات الإنكليزيات المسكينات.

- تنسين انني لا أعرف شيئاً عنها.

- إذاً، دعني أُخبرك أن نيڤادا ڤان أردِن هي من أغنى الورثة الأميركيين.

- ومع كل هذه الثروة، فقد أفرطوا في تدليلها.

- أخشى فعلاً أن تكون على حق، قالت ليدي ميريل. مع ذلك فقد كانت والدتها إحدى أرقّ والطف النساء اللواتي عرفتهنّ في حياتي. كانت زميلتي في المدرسة. وكانت إليزابت ابنة دوق ڤنبريدج قد تزوّجت من كلينت ڤان أردِن بعد سنة من خروجها إلى المجتمع. أعتقد أنها كانت سعيدةً جداً.

كان تايرون ستروم يستمع وعلى شفتيه ترتسم ابتسامة فيها شيء من التهكّم. وأضافت شقيقته:

- اعتدنا التّراسل بالرغم من صعوبة الاحتفاظ بصداقة مع شخص يعيش في الجهة المقابلة من الأطلسي. كانت نيڤادا في الثامنة أو التاسعة من عمرها عندما ماتت إليزابت ويبدو أن موتها حطّم كلينت ڤان أردِن.

- من قال لكِ ذلك؟

- أواه! عدد كبير من صديقاتي الأميركيّات، أجابت ليدي ميريل. لم يعد يهتمّ إلاّ بكسب المال، وأظن أنّه لم يكرّس وقتاً طويلاً لطفلته الوحيدة.

- تُريدين أن أشفق عليها، قال تايرون ستروم بنبرة اتّهام. نُقي، يا هيلين، بأنّ الشّفقة هي الشيء الأخير الذي أمنحها إيّاه.

- أعتقد أنها تعتبر الشفقة بمثابة إهانة، أجابت ليدي ميريل. إنّها واثقة جداً من نفسها؛ وهي متأكّدة تماماً من أنّ العالم موجود فقط لرؤيتها تمشي. والأدهى أنها لا تمشي على الأرض بل على القلوب.

وإذ رأت الإزدراء في عيني أخيها، أضافت ليدي ميريل:

- ... إنتظر حتى تقع عينك عليها. سوف تفهم لماذا لا أمل بتاتاً لداڤيد المسكين ولا للآخرين الذين يُشاطرونه مصيره.

وسكتت ليدي ميريل ثمّ تابعت بصوت مضطرب:

- أواه! تايرون، أنا جدُّ قلقة عليه.

- أفهم ذلك.

لم يكن قد حدَّث اخته بتهديد داڤيد بالانتحار، ولا بأنّه عثر عليه وفي يده مسدّس. وربما كانت ليدي ميريل على علم بأكثر مما يظنّ، ذاك أنّها قالت بعد صمت:

- أعتقد أنكَ على حق، تايرون. لو رحل داڤيد، فقد ينسى نيڤادا.

- أنا لا أرغب في أن ينساها، قال تايرون ستروم... ما أريده هو أن يفهم أنها شرّيرة وغير جديرة به.

وقسا صوته قبل أن يُضيف:

ـ ... لا أفهم كيف يُفكِّر رجل عاقل نوعاً ما في الزواج من امرأة تفتقر إلى كل الصفات الأنثوية!

وابتسمت شقيقته.

ـ عرفتَ في حياتك الكثيرات من النساء، تايرون، إلاّ أنك، مع ذلكَ، لم تتزوّج.

ـ يا عزيزتي، يعود السبب إلى انني لم أصادف في حياتي امرأة بمثل سحركِ، يمكن أن أجد معها المتعة التي أشعر بها وأنا أتحدَّث إليكِ.

وأغرقت في الضحك.

ـ إنك تُطريني!

ـ بالتأكيد لا! أنا لا أقول سوى الحقيقة. أجد النساء جذّابات إلى أن أُجبَر على الإستماع الى حديثهنّ. وأجدهنّ مُغريات جداً إلى أن تحاولنَ التدخُّل في نمط حياتي.

ـ تايرون، إنك لا تريد أن تبقى عازباً طوال العمر.

ـ لِمَ لا؟

ـ كم يكون ذلك محزناً. ثمّ، أريد أن أراك محاطاً بالأطفال.

وتنهَّدت ليدي ميريل

ـ اتحسَّر تماماً لأنني لم أُرزَق سوى طفل واحد. لقد كنت أرغب في دزينة من الأطفال. بيد أنك على علم بأن الطبيب أوضح، بعد ولادة دافيد، بأنني لن أُرزق ولداً غيره.

ووضع تايرون يداً على شقيقته.

ـ تأخرَّ الوقت لأن تُرْزَقي أطفالاً، ولكنّي أرغب في رؤيتك

تتزوّجين مرّة ثانية وتسعدين من جديد. وأنا متأكّد من أن طالبي الزواج كثيرون.

هنا، ابتسمت شقيقته.

ـ واحد أو اثنان. غير أنني أشعر أن من واجبي تكريس نفسي لدافيد حتى يجد لنفسه مركزاً في الحياة. إنّ فيه أحياناً غريزة متوحِّشة تُلقي في قلبي الرعب.

ـ هذا يعني أيضاً، يا هيلين، أنّه سنّ الرشد. إنّ زوجاً الى جانبك سيساعدكِ على فهم دافيد ويُرشدكِ على طريقة معالجة أمره.

ـ عل كلّ حال، لم تكن فكرة إرساله إلى افريقيا لتخطر في بالي.

ـ إنها لسلامته، حتى وإن تألّمتِ للإبتعاد عنه.

ـ بصراحة، إنّه لمن دواعي سروري أن يرحل إذا كان ذلك كفيلاً بأن يجعله ينسى نيڤادا فان أُرْدِن. لقد جعلَتْه غاية في التعاسة. لكنّها، في الوقت الحاضر، تفعل الشّيء نفسه مع داندونالد الشاب.

ـ إبن جيرالد؟ سأل تايرون.

ـ نعم. إنك تتذكّره، أليس كذلك؟ شاب لطيف للغاية.

سكتت ليدي ميريل ثمّ اضافت:

ـ ... بالطبع، ليس من سبب يحول دون زواج نيڤادا منه: سوف يصير مركيزاً يوماً من الأيام. واخال ان كل الأميركيين يحبّون الألقاب.

www.rewity.com/vb

- آه، اذاً، هوذا ما تسعى خلفه... ولكن، في هذه الحال، لماذا لا تتزوج من داڤيد؟

- لا أملك جواباً على ذلك. إلاّ إذا كانت تعتقد أنّ المركيز هو نصيب أفضل.

وعضّ تايرون على شفتيه إذ استشفّ في صوت شقيقته شيئاً من المرارة. أخيراً، قالت ليدي ميريل بجهد:

- على ذكر الألقاب، تايرون، قيل لي إنك رفضت لقب فارس من رتبة القديسَيْن جاورجيوس وميخائيل. لماذا فعلتَ ذلك؟

- من أخبركِ بالأمر؟

- شخص يعرفك وشديد الإعجاب بشخصكَ.

- على هذا الشخص أن يُبرهن على ذكائه بأن يحفظ لسانه.

- إنّ ذلك لصحيح إذاً... لقد عرضوا عليكَ الوسام المذكور؟

- كان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك، أجاب تايرون متهرّباً. بيد أني أفهمتهم بوضوح أنني لست مهتمّاً بالألقاب ولا بالأوسمة.

- كنتُ لأفخر بك.

- وهل أحتاج حقاً إلى لقب لأحظى بذلك؟

- لا، بالتأكيد لا. تعرف تماماً أنّني أجدك رائعاً، منذ زمن طويل. لم أتعرّف الى رجل مثلك، تايرون، غير أنني أريد أن يعرف العالم بأسره كم أنت شخص غير عادي.

نهض تايرون ستروم ضاحكاً.

- إنكِ تتركين نفسك فريسةً للتقاليد الإجتماعية التي تُفسدكِ. فأنا ما إن تطأ قدماي لندن أو الريڤييرا حتى أتحقّق إلى أية درجة هذا العالم سخيف بالنسبة إلى الأرض بأسرها.

- إنكَ على حق بدون شك، اعترفتْ الأُخت. أنا أعبدك مهما فعلتَ ومهما لم تفعل. تايرون، أنتَ أظرف وأروع أخ قد تحلم به امرأة.

- إذاً، ثقي بي لأعملَ المناسب فيما يتعلّق بداڤيد.

- إني أثق بك ومقتنعة، بصدق، بأنك على حق.

- أعرف ذلك.

وقبّل تايرون اخته على خدِّها.

- إذهبي ونامي يا عزيزتي، قال لها. سوف نتكلّم في ذلك بالتفصيل غداً صباحاً. لا تنسَيْ أن على داڤيد أن يركب قطار الساعة الثانية.

- سوف يسهر رونالدسون على كلّ شيء، قالت ليدي ميريل. لقد سمعتُ داڤيد يطلب منه إعداد الأغراض اللازمة له.

- لن يعجز رونالدسون عن ذلك. فهو لم يخذل أحداً منّا، قال تايرون مبتسماً. عمتِ مساءً، يا عزيزتي. حاولي النوم. فثمة قضايا لا يمكن حلّها قبل صباح غد.

ووجّه إلى شقيقته إحدى ابتساماته التي كان يقول فيها انها لا تُقاوَم، قبل أن يبارح الغرفة.

نزل تايرون ستروم الدرج قاصداً الشاليه.

كان الوقت متأخّراً جداً، أو بالأحرى مبكراً جداً، وكان الخدم قد أووا الى النوم بعد أن أعادوا ترتيب المكان.

كانت الڤيلاّ هادئة. وقد بقيت الأنوار في الممشى مضاءةً تنعكس على المزهريّات الكبيرة الموضوعة على المناضد.

كان تايرون ستروم يرى في تلك الأزهار شعاراً للطهارة وكان يتشوّق الى التأمّل فيها حالما يعود الى الجنوب.

كان يحدِّق في الأزهار المنسَّقة بطريقة فنيّة تُبرز فتنتها الساحرة عندما فُتح الباب الأمامي، ودخل أحدهم. أدار رأسه. فكان الداخل شابّة. كانت تلبس وشاحاً أبيض فوق ثوب من اللون نفسه، وبدت له، للوهلة الأولى، أكثر طهارة وكمالاً من الأزهار التي كان مُعجباً بها.

وإذ أغلقت الباب خلفها، خلعت منديل الموسلين الذي يُغطّي رأسها؛ فظهر شعرها الأشقر المتموّج العزيز على قلوب رسّامي ڤيينا.

كان وجهها صغيراً على شكل قلب، وقسماتُه خالية من العيوب، والعينان الواسعتان تبدوان من نسج الخيال. ظنّ تايرون في بادىء الأمر أنّهما سوداوان ثم تبيَّن له حين تقدَّمت نحو الضوء، أنهما خضراوان.

كانت الفتاة تحدِّق به. وشعر تايرون بأنهما يتبادلان النظرات بشكل لا يخلو من المعنى. ثم قالت أخيراً:

ـ من أنت؟

ما إن سمع صوتها حتى عرف مَن هي.

ـ أنا تايرون ستروم، أجاب، شقيق ليدي ميريل، و... خال دافيد.

وركّز على الكلمتين الأخيرتين فارتسمت ابتسامة على شفتي نيفادا الحمراوين وهي تُجيب:

ـ بالتأكيد! كنّا في انتظارك البارحة. لقد أخبرني دافيد الكثير عنكَ.

ـ وأنا أيضاً، آنسة فان أردِن، سمعتُ الكثير عنكِ.

ـ الكثير من الأخبار المجحفة بحقّي، كما أنا موقنة.

ـ بالتأكيد!

قال الكلمة بهدوء، لكنّها رنّت بغرابة كالإهانة. نظرت إليه من تحت رموشها الطويلة السوداء ثمّ رفعت رأسها:

ـ هوذا إذاً المستكشِف، المغامر، والسيّد الذي تُحاط مآثره بالأسرار، مستعدّ للإنتقاد.

ـ وهل كنتِ تتوقّعين شيئاً آخر؟

ـ لم أكن أتوقّع شيئاً، سيِّد ستروم. ببساطة، من العجب أن يكون لديك أحكام مسبقة.

ـ فقط عندما يتعلّق الأمر ببعض الأشخاص.

ـ بي، بوجه خاص.

وقامت نيفادا بحركة في غاية الغنج، كما اعترف تايرون ستروم في سرّه.

ـ آنسة فان أردِن، إنكِ تضعين نفسك في وضع يعرّضك للإنتقاد.

ـ وهو أمر أفضّله تماماً على أن أكون فاقدة الشخصيّة لا تأثير لي على الناس الذين أصادفهم.

ـ أنا متأكّد من استحالة حصول هذا الشيء.

كان اعترافه هذا مديحاً لها، وإذ رأى في عينيها ما يُشبه الضحك، شعر وكأنّها تسعى عمداً الى إثارته وإغرائه.

وتأكد من هذا الشعور عندما أضافت:

ـ لقد عشت منذ زمن طويل في المناطق الموحشة حتى فقدتَ كل صلة بالحضارة، سيِّد ستروم. وإنّي أؤكّد لك أنّه من الممتع أن ينكشف جهلك في المستقبل وتظهر العيوب في البطل الذي يهتف له الجميع.

كانت كل كلمة تلفَّظت بها بصوت منخفض بمثابة ضربة خنجر.

ثمَّ توجهت نحو الدرج. ولمّا مرَّت بالقرب منه، شمَّ منها رائحة المسك الرومي فارتأى أنّه لا يُلائم شابة مثلها.

ـ عمتَ مساءً، سيِّد ستروم، قالت وهي تضع يداً على درابزين الدرج. أمل أن القاكَ مرّة أُخرى، ولكن أعذرني إذا قلتُ لك إنني أجدكَ حتى اللحظة مخيِّباً للآمال.

كانت عيناها الخضراوان تتّسعان بإثارة وشفتاها تصقلان كل كلمة تقولها.

وبأناقة الملكة، صعدت الدرج ببطء، تدرس كل حركة تقوم بها، متأكّدة تماماً من أن تايرون ستروم ينظر إليها.

وإذا به ينفجر من الضحك عندما سمع باب غرفتها يُغلَق خلفها.

لم يكن ثمة شك في أن الآنسة ڤان أردِن كانت بغيضة وقاسية؛ وكانت المثال الحيّ لكل ما كان تايرون ستروم يكره عند فتيات ذلك العصر. كان صحيحاً أيضاً أنها، في الظاهر، لا تهتمّ أبداً بما يَنتظر منها أن تكون.

«ليس في الأمر ما يدعو للدهشة»، قال في سرّه قبل أن

يضيف «أن يقع داڤيد الإنكليزي المسكين، تحت سحر هذه الأفعى الغريبة. لا، طبعاً، وبالنظر إلى شعرها الأصهب، أفلا يجدر بي تشبيهها بالساحرة؟»

وإذ قفل راجعاً الى الشاليه، فكّر تايرون ستروم في الطريقة الشرّيرة والكريهة التي تحدَّثت بها مع ابن اخته؛ كما تذكّر يأس الشاب وحزنه.

كان يدرك تماماً أنّه لو لم يصل في الوقت المناسب، ولو لم يستمع صدفةً الى تلك المحادثة من شرفته، لكان داڤيد ارتكب ما من شأنه أن يُحطِّم قلب والدته.

وحدها المصادفة أتاحت له الحؤول دون وقوع هذه الكارثة.

لهذا السبب، صرخ تايرون ستروم عندما وصل إلى غرفته:

«تبّاً! هذه الساحرة الصغيرة تحتاج الى درس حقيقي. وأرجو من السماء أن تتلقّن هذا الدرس».

www.rewity.com/vb

الفصل ٢

ان تايرون ستروم يتناول طعام الفطور على المصطبة، خارج الشاليه. وكان كعادته قد نهض في ساعة مبكرة. فنداوة الصباح تحت نور الشمس الباهت كان لها بالنسبة إليه مفعول السِّحر.

كان تايرون ولا يزال مغرماً بألوان المتوسِّط الفاقعة ولم يكن ليستهويه شيء أكثر من المشهد الذي يطلّ عليه من الشاليه، وسقسقة المياه في الحديقة، تحته مباشرةً، وتلك الأزهار الغريبة التي تعرِّش أمامه على الدرابزين.

كان قد استلقى مفكِّراً بهموم شقيقته المتعلِّقة بإبنها، لكنه نام نوماً عميقاً خالياً من الأحلام بحيث كان يشعر صبيحة هذا اليوم بلياقة كاملة وبمزاج رائق.

ومن أسباب راحته وارتياحه أنَّه لم يعد مشغول البال بأهمية مهمته ولا بالخطر الذي يتهدّده. لقد كان متأكّداً من هذا الأمر.

كان قد شعر، خلال السنوات الماضية، بأنَّه أكبر سنّاً مما

هو عليه في الواقع، لكنَّه يحسّ في الوقت الحاضر بأنه تلميذ في عطلة، مستعدّ للإستفادة من كل دقيقة.

إختار بضع سمكات من طبق اصطيد ما فيه عند العشيَّة، وفكّر انه متى يرحل داڤيد الى افريقيا فسوف يُسعده أن يتجاذب وأخته أطراف الحديث كما لم يفعل منذ سنة.

لم يكن من باب المديح قوله لها إنه يجدها أكثر ذكاء وجاذبية من النساء الأخريات اللأتي عرفهنّ.

كان يحبّ هيلين لأنها متفهِّمة وفائقة الأنوثة إنْ في تصرّفاتها أم في شكلها.

كان تايرون ستروم قد عاش حياة شاقة وصعبة علَّمته أن يكون قاسي القلب وأحياناً متحجِّر العواطف، حسب رأي الكثير من الناس. في مقابل ذلك متى وُجد مع إمرأة، يطلب منها أن تكون لطيفة وطيِّعة.

كان ذلك ما فتَّش عنه لدى جميع النساء اللأتي أحبَّهن، وإذ فكّر في نيڤادا، لاحظ أنها تمثِّل كلّ ما يكرهه في الشابات.

وكما لو أنَّ مجرّد التفكير فيها كان كافياً لتظهر أمامه، فقد سمع وقع خطوات خلفه. إلتفتَ، فرأى داڤيد ونيڤادا يعبران الرحبة التي رُويت بعناية، ويتّجهان نحوه.

كانت معالم نيڤادا بارزةً أمام شجر السّرو المعتم، وكالليلة الفائتة، كانت غاية في الجمال والفتنة.

لم تكن تعتمر قبّعة، وكانت الشمس تنعكس على شعرها السنةً من اللهب.

كانت عيناها خضراوين تماماً وبشرتها بيضاء كامدة.

www.rewity.com

نهض تايرون ستروم ببطء وقد غاظه أن يُزعَج وقت تناوله طعام الفطور.

ـ صباح الخير، خالي تايرون، قال دافيد، وفي صوته نبرة انفعال ظاهرة.

ـ صباح النور، دافيد. صباح النور، آنسة فان اردِن، قال تايرون ستروم. هل تسمحان بأن لا أقطع فطوري. يُدهشني انكما إستيقظتما باكراً.

ـ إننا هنا لأنّ رونالدسون أخبرنا بأنك تنوي الذهاب إلى نيس، قال دافيد.

ـ هذا فعلاً ما عزمتُ عليه، أجاب تايرون ستروم. لقد قلتُ لك البارحة مساءً إنّ على متن يختي بعض البنادق والمعدّات التي قد تفيدك في افريقيا.

ـ لا أريد أن تقوم برحلتك عبثاً، قال دافيد.

كانت الكلمات متردِّدة نوعاً ما. وفجأةً، تدخّلت نيقادا، وفي صوتها رنّة انتصار:

ـ ما يقصده دافيد، سيِّد ستروم، هو أنه لن يسافر.

كانت عيناها الخضراوان مسمَّرتين في عينيه ففهم تايرون ستروم أنها تتعمّد ما قرأ فيهما من تحدّ.

رفع الخال حاجبيه دون أن ينبس ببنت شفة، وشرح دافيد بشيء من الضيق:

ـ البارحة مساءً، كتبتُ الى نيقادا رسالة اخبرها فيها عن ذهابي الى افريقيا؛ وهذا الصباح، اقنعتني بأن أبقى هنا لأعتني بها.

ـ وبالتأكيد، سوف تفي بوعدك، أجاب تايرون ستروم.

او كان دافيد ينتظر من خاله أن يعترض، أو خيَّل للفتاة والشاب أنه سيغضب أو يثور حيال تغيير رأي ابن أخته، فسوف يخيب أملهما، فكّر تايرون ستروم.

ـ أرأيت، يا دافيد، قلتُ لكَ انك تتعذّب من أجل شيء لا يُذكر، قالت نيقادا.

وإذ كانت تتكلّم، تناولت قطعة خبز محمَّص من سلّة الخبز، وضعت عليها القليل من الزبدة ثم أضافت ملعقة صغيرة من العسل. وقضمت قطعة الخبز بأسنانها البيضاء التي تُشبه اللآلىء.

ـ لذيذ! قالت. لا أدري لماذا لم أطلب أن يؤتى لي بالعسل. كدتُ انسى كم هو لذيذ في هذه المنطقة.

كان دافيد ينظر إلى خاله.

ـ لا أُريد أن تحسبني عقوقاً، خالي تايرون، بعد العرض الذي قدَّمتَه لي مساء البارحة. أخبرني رونالدسون أنك أرسلتَ برقية الى أصدقائك. كم انا متأسِّف، ولكن، غنيّ عن القول إنني أودّ البقاء هنا لأنّ نيقادا ترغب في ذلك.

ـ بالتأكيد، أرغب في ذلك، قالت نيقادا. أحتاج الى مرافق جميل ومميَّز ليُراقصني وليَصطحبني الى كل تلك الأماكن الصاخبة التي تحيط بنا.

ـ ولكنْ، كل شيء كان يبدو بالأمس مملاً في نظرك، لاحظ دافيد.

ـ كان ذلك بالأمس، أجابت نيقادا بسرعة مُرفقةً قولها

بحركة من يدها. اليوم، غيّرت رأيي. سوف تكون لنا مشاريعنا، دافيد. سوف نستكشف المناطق المجاورة.

- هل تُريدين أن نقوم بذلك في إحدى عربات خيل والدتي؟ سأل دافيد. أو انك تصرّين على أن نستقلّ عربة تشارلي الصاخبة والمُنْتِنة؟

- إنها لفكرة، أجابت نيفادا. ولكن، لِنَقُلْ عرضاً إنها ليست نتنةً وهي سريعة جداً.

- سريعة للغاية، قال دافيد بصوت كئيب. تعرفين تماماً أنه من الخطر قيادة السيّارات بسرعة جنونية على هذه الطرقات.

- أحب أن أعيش في الخطر، أجابت نيفادا بسرعة. هكذا ينبغي أن نعيش. أنت توافقني الرأي، مستر ستروم، أليس كذلك؟

حدّقت بتايرون ستروم، فاتحة عينيها الخضراوين لتظهر فيهما تعابير البراءة، مما أسبغ على سؤالها مسحة من السذاجة والملاطفة.

تأمّلها تايرون ستروم، وفي نظرته بريق سخرية.

- آنسة فان أردِن، أتساءل إن كانت لديكِ فكرة عن الخطر.

- لا. إلاّ إذا كنتَ تلمح إلى الخطر الذي قد أتعرّض له متى كنتُ وحيدة تحت ضوء القمر برفقة رجل جذّاب.

- متى حدث هذا؟ سأل دافيد بغيرة. لم تُخبريني بذلك أبداً.

- عزيزي دافيد، لا تتوقّع منّي أن أعترف لك بكل مغامراتي العاطفية. ثم إنك تعلم مدى كرهي للغيارى.

- كيف تريدين مني ألاّ أغار؟

- إنّ الغيرة - شأن الحب - هي انفعال باستطاعتي الإستغناء عنه، أجابت نيفادا بصوت غَنِج. فالحب والغيرة يمنعانك من الإستمتاع بالحياة؛ ولكن، لا يغرّنك الأمر فأنا عازمة على التلهّي.

كان دافيد ينظر إليها نظرة متوسّل خائب.

ليس من المدهش، فكّر تايرون ستروم، أن يتعلّق بها الشاب الى هذا الحد. فنيفادا، بدون شك، من أجمل المخلوقات اللاّتي راهنّ في حياته. ومن المؤسف فقط أن تكون في الوقت نفسه إحدى أزعج النماذج التي صادفها أبداً.

كان قد فهم تماماً أنها تسعى لأن تُثبت له تأثيرها على دافيد، والإستخفاف بسلطته؛ وكان واضحاً أنها لن تتراجع البتّة للوصول الى غايتها.

وبعد أن أكلت قطعة الخبز بالعسل، قالت:

- أعتقد، مستر ستروم، أنه من غير المجدي إشراكك اليوم في مشاريعنا؟

- وهل هذه دعوة توجّهينها إليّ؟

فاجأتها الطريقة التي تكلّم بها. ألقت عليه نظرة سريعة إستنتج منها تايرون ستروم، بفضل خبرته الطويلة بالنساء، أنّ الفتاة اعتبرته للمرّة الأولى هدفاً يمكن إستمالته.

- ولِمَ لا؟ قالت. أودّ لو أسمعك تتحدّث عن مآثرك... هذا إذا قرّرتَ ذلك في النهاية.

ـ نظراً إلى رغبتك في التسلية، فإني أخشى أن تُدخل مغامراتي الملل إلى نفسك.

ـ أواه، مستر ستروم، أنا على ثقة من أن ما من شيء تفعله يسبّب الملل.

ـ إن المغامرات كلها، حتى غير المتوقّعة، قد تحتوي على لحظات رتيبة، خصوصاً عندما نكون بمفردنا.

ـ في هذه الحالة، ينبغي علينا أن نحاول تعويض تلك اللحظات التي أحسستَ فيها بالوحدة، قالت نيفادا بهدوء.

ـ إنَّ هذا لإطراءٌ لي، إبتسم تايرون ستروم، ولكنّي لا أريد أن أفرض نفسي عليكِ وعلى داڤيد. إن لكما، على الأرجح، شأناً معاً وأخشى أن أكون رقماً زائداً.

ـ لا، بالتأكيد لا، أجابت نيفادا في الحال. نحبّ أن تكون معنا، أليس كذلك، داڤيد؟

ـ إذا كانت تلك رغبتك، أجاب داڤيد، دونما حماسة تُذكر.

وكاد تايرون ستروم ينفجر ضاحكاً أمام هذه الشابة العديمة الخبرة التي تعتقد نفسها على وشك استمالته.

كان قد غازل بعض أجمل النساء الشهيرات في أربعة أقطار العالم. لذلك لم تخدعه أبداً تلك البراءة في عيني نيفادا الواسعتين.

في الوقت نفسه، لاحظ أنّ ابن أخته يرمقه برِيبة، وقد غار من اهتمام نيفادا به.

ـ داڤيد، قال ستروم، أريد أولاً أن أطّلع على رغبة والدتكَ. كان من المتوقّع أن تزور يختي.

ـ أواه! أرغب في زيارته أيضاً! صرختْ نيفادا. هل تُوافق على ذلك؟ أنا مهووسة بالمراكب.

ـ بالتأكيد، أجاب تايرون. فمن دواعي سروري أن تزوري «مولاي».

ـ وهل هذا هو الإسم الذي أطلقتَه عليه؟

ـ نعم. قد لا تعلمين أنّ الإسم عربي ومعناه «السيِّد». أنا أعتبر أن يختي ملك بين المراكب الأخرى.

ـ أواه! إذاً، ينبغي أن أشاهده دون تأخير! قالت نيفادا بنبرة ملحاحة. أرجوك، أقنع ليدي ميريل بمرافقتنا جميعاً لرؤية «مولاي».

ـ هل نسيتِ أنكِ طلبتِ منّي إرسال كلمة إلى تشارلي أُعلمه فيها برغبتي في لعب التِنِس (كرة المضرب) قبل طعام الغداء في الفيلاّ خاصتِه؟! قال داڤيد باستياء، إنَّ الخادم في طريقه إليه الآن، بدون شك.

ـ نعم، بالفعل، أجابت نيفادا. لابأس في الأمر. أرسِل كلمة أخرى صغيرة قُل له فيها إنك مشغول جداً.

وطرأت على رأس تايرون ستروم فكرة أن نيفادا قد رتّبت كل شيء بحيث لا يُتاح لداڤيد التفكير في المشروع الإفريقي الذي تخلّى عنه.

ـ ربُما لم ينطلق الخادم بعد، قالت بسرعة. حاول إيقافه.

ـ فَلْيَكُن. بيد أن تشارلي سوف يخيب أمله.

ـ سوف أعمل على مؤاساته فيما بعد، قالت نيفادا، بغير إكتراث.

www.rewity.com/vb

كان دافيد جالساً على مسند كنبة بالقرب من الطاولة الصغيرة، فوقف واتّجه نحو الڤيلاّ.

عندما غاب عن النظر، قالت نيڤادا:

ـ قد أكون ارتكبتُ خطأً بمنعي د'ڤيد من العمل بنصيحتكَ. ربما كان الأمر ممتعاً أكثر في غيابه.

كان في صوتها تلميحاً أثار في تايرون ستروم رغبة جامحة في ضربها على قفاها. لكنّه اكتفى بالإجابة بصوت عذب:

ـ خُيِّل إليَّ أنه سيسعد أكثر بصيد السِّباع.

ـ وهكذا ينساني، بالتأكيد! إنه الحلّ الكلاسيكي لتخليص شاب متيَّم من شخص لا يثير الإعجاب.

ـ وهل قلتُ ذلك؟ سأل تايرون ستروم.

ـ ألمحتَ إلى ذلك البارحة مساءً.

ـ ربما جاء حكمي متسرِّعاً جداً ولم يرتكز إلاّ على شائعات.

ـ وهل غيّرت رأيك في الوقت الحاضر؟

ـ أما زلنا نتحدّث عن دافيد؟

كان تايرون ستروم يلعب على الكلام. وكان الحديث شبيهاً بالمبارزة حيث لكل جملة معنى مستتر قاطع كحدّ السّيف.

ـ أظنّ أنكَ تخيفني بعض الشيء، مستر ستروم.

كانت شفتاها تتلاعبان بالكلمات كما خفضت عينيها بحيث تبدو للرجل الذي تعوزه الخبرة قليلاً أنها خجلة وطاهرة.

ـ ليس هذا شعوري بتاتاً، أجاب تايرون ستروم. يبدو لي، آنسة ڤان أردِن، أن ثمة أشياء علينا أن نعرفها الواحد عن الآخر.

ـ أودّ لو تدعوني نيڤادا. آنسة أردن فيه الكثير من التكلّف. أنتِ غاية في اللطافة.

وجدهم الذين يعرفون تايرون ستروم معرفة حقّة، كان بإمكانهم أن يدركوا أنّه ليس بمتهكّم فحسب؛ فقد كان في عزيه ومضة خبث تُثبت أنه يتمتّع بهذا الحديث.

لم يكن قد نسي لحظةً أنّه أنقذ دافيد من ارتكاب عمل كان من شأن عواقبه في الوقت الحاضر أن تلفّ بالحزن العميق سكان الڤيلاّ بأسرهم.

كان قد قرّر محاربة هذه السّاحرة بوسائله الخاصة. وبالرغم من أنّها وافته إلى الحديقة لتحتفل بانتصارها، فقد كان يعلم أنها تكرهه لإقدامه على انتقادها مساء البارحة وأنها تعتقد بأنها تثأر لنفسها بجعله أسير هواها.

كان من الواضح تماماً أنها معتادة على أن يقع الرجال في حبائلها من النظرة الأولى بحيث يفقدون صوابهم، كما هي حال دافيد.

كان جمالها لا يقبل المنازعة؛ إلاّ أنه كان جمالاً لا يوازي بشرّه وسوئه جمال ميدوزا السّاحرة التي كانت من جهتها، على الأقل، تُنذر الرجال بشرّها حين تجعل الأفاعي في ضفائر شعرها.

كان في ضفائر شعر نيڤادا قدرة على السِّحر خاصة بها. زد على ذلك أنه كان يستحيل على غالبية الرجال ألاّ يفقدوا صوابهم متى نظرت إليهم نيڤادا من تحت رموشها السّوداء، وفي عينيها أسرار الشرق بأسرها.

ـ أسفة لأنّنا لم نتكلّمْ الليلة الماضية أكثر مما فعلنا، قالت الشابة بصوت عذب. ولكنْ، في النهاية، ثمة ليالٍ أخرى كما أن ضوء القمر يجعل من هذه الحديقة أكثر المناطق التي زرتُها رومنسيّةً.

ـ هذا هو رأيي أيضاً، قال تايرون ستروم موافقاً.

ـ إذاً قد يكون بإمكاننا مشاهدته معاً، إقترحت بصوت لطيف.

ـ ولِمَ لا؟ ولكنْ، ينبغي ألاّ نفوّت الساعات المشمسة.

ـ لا، بالتأكيد. ثم إني أريد أن أشاهد يختكَ.

وتأمّلته قليلاً قبل أن تقول:

ـ سوف أرسل داڤيد ليلعب التنس. لأنه سيُزعجنا ليس إلاّ، متباطئاً خلفنا، في حين أن لديّ الكثير أسألك إيّاه.

ـ يا للفكرة الرائعة! هتف تايرون ستروم. رتّبي الأمر مع داڤيد بينما أذهب لرؤية أختي.

نهض وهو يتكلّم، فحذت نيڤادا حذوه.

كان لكل حركاتها تأنّق خاص. وراح يُفكّر كم هو من الصعب تصديق مدى خطورتها، وهي في ثوبها الأبيض وشعرها الأصهب المتوقّد.

وابتسم الإبتسامة التي لا تقاوَم حسبما ترى النساء اللأتي مررنَ في حياته.

ـ من دواعي سروري أن أستقبلكِ عل متن «مولاي»،

ـ كم سيكون ذلك مثيراً! أجابت نيڤادا وهي تصرعه بتلك

النظرة الخفيّة التي كرّرتها مرّات عدّة أمام مرآتها، كما خُيّل إلى تايرون.

مشيا جنباً إلى جنب ببطء نحو الڤيلاّ، وكانا على وشك إدراك الدرج الأبيض الطويل عندما هبط عليهما داڤيد.

ـ لم يكن في اليد حيلة، نيڤادا. لقد انطلق بالرسالة. ولكنْ، بإمكاني إرسال الخادم مجدّداً مع رسالة أخرى حال عودته.

ـ بعد التفكير في الأمر، أظنّ أنه من غير اللائق... بدأت نيڤادا.

ورفض تايرون ستروم أن يستمع إلى أكثر من هذا. ترك الإثنين وصعد إلى عند شقيقته.

كان يعرف أنها لا تستيقظ في ساعة مبكرة؛ وبالفعل، رآها جالسة في سريرها، تلبس رداءً خفيفاً من الموسلين الأزرق، شابةً وفاتنة، تستند إلى كدسة من الوسائد المطرّزة بالدنتيلاّ.

ـ صباح الخير، عزيزي تايرون. كنت آمل أن تأتي.

إنحنى يُقبّلها على خدّها ثمّ جلس على حافة السّرير، وقد أخذ يدها بيده.

ـ هل نمتَ هنيئاً، سألته. أنتَ في غاية الأناقة هذا الصباح.

اتلهّف إلى تعريفكَ بصديقاتي لتعرفن كم هو جميل أخي.

ـ لكِ عندي، للأسف، أخبار سيئة.

وشعر بها تتشنّج.

ـ تلك الشابة، نيڤادا، اقنعت داڤيد بعدم السفر إلى افريقيا.

ـ أواه، لا! صرخت ليدي ميريل. لقد فكّرتُ في الأمر الليلة،

تايرون، واستنتجتُ أنّ السّفر هو أفضل شيء ننفّذه. إنه غاية في الحزن والتعاسة منذ وصوله إلى هنا.

- أفهم ذلك.

- إنّها تشجّعه ثمّ لا تلبث أن تغيظه وتسحقه بقسوة، دون أي مبرّر؛ حتى أنا، أكاد لا أتحمّل ما تفعله.

- وفي رأيك، لماذ تتصرّف هكذا؟

- أظن أنّ ذلك يعود إلى رغبتها في إثبات سلطتها. إنّها الطريقة نفسها التي تتبعها مع كل الرجال الذين تتعرّف إليهم. وهي لا تتوانى عن جعلهم يزحفون عند قدميها. إن لورد داندولاند حزين على تشارلي حزني على داڤيد.

- كم دعوتِها للإقامة هنا؟

- ثلاثة أسابيع أخرى! قالت ليدي ميريل. الله وحده يعرف الإساءة التي سوف تتسبّب بها حتى ذلك الحين.

كان أخوها يفهم تماماً هذه الصرخة لأنه يتذكّر ما كاد يحصل عشية الليلة الفائتة.

- هي لم تأتِ من أميركا. بمفردها، سأل تايرون مستفسراً

- لا، بالتأكيد! لقد أرسل أبوها لمرافقتها إمرأةً مُسنّة، لطيفة جداً، على ما أظن، لكنّها بالتأكيد عديمة التأثير كوصيفة.

- وأين هي الآن؟

- مرضت ساعة وصولها إلى لندن. وأنا، عندما دعوتُ نيڤادا، ولم أكن أعلم ما هي عليه، دعوتُ تلك المرأة أيضاً.

- ولم تأتِ المرافقة؟

- كلا. لقد شرحت لي نيڤادا في رسالة بعثت بها أنها سوف

تأتي بمفردها طالبةً فقط من أحد عمّال البريد مرافقتها خلال الرحلة.

- إذاً، وصلت بمفردها، أضاف تايرون ستروم.

- نعم. لقد تركت وصيفتها إلى جانب السيّدة لانغهولم - إنه إسمها على ما أظن - راجيةً مني أن أجد لها إمرأة فرنسيّة تنوب عنها طيلة إقامتها عندي.

- هكذا إذاً، أمامها ثلاثة أسابيع تمضيها هنا، قال تايرون مفكراً.

وبدا على شقيقته الإنزعاج.

- لأكون صادقة معك، أعترف لك بأنني قلتُ ثلاثة أسابيع... أو المدّة التي ترغب في قضائها. لم أكن أعلم حقاً ما هي عليه ابنة اليزابيت، ولا مدى جمالها.

وتنهّدت ليدي ميريل.

- إنّ جمالها لا يقبل الجدل، بيد أن وجهة استعماله هي المزعجة. أواه! تايرون، حاول إقناع داڤيد بالسّفر.

- لقد أعلمته نيڤادا بأنها تحتاجه لمرافقتها والترفيه عنها.

وضعت ليدي ميريل يديها فوق عينيها.

- لا أريد أن أتصوّر حالة داڤيد عند انتهاء زيارة نيڤادا. إنه يقع فريسة المرض. لقد أخبرني رونالدسون بأنه يذرع غرفته في منتصف الليل وهو يدخّن، وهذا أمر لم يكن يفعله فيما مضى، ولعلّك لاحظت أيضاً أنّه قلّما يتناول الطعام.

لزم تايرون ستون الصمت، فمدّت ليدي ميريل يدها نحوه.

- كلّمه، تايرون. قد يقتنع منك. كم أشعر باليأس في مثل

هذه اللحظات، وأتمنّى من كل قلبي لو أن جورج لا زال على قيد الحياة.

ـ أتساءل إن كان داڤيد استمع الى والده... أو الى أي شخص آخر.

ـ إذاً، ما العمل؟.

كان القلق بادياً في عيني ليدي ميريل وشعر أخوها فجأة بواجب حمايتها.

كانت أخته أكبر منه سنّاً وكان يشعر دائماً بأنه يستطيع الإعتماد عليها. لم يكن بمقدوره رفض مساعدتها، وقد استنجدت به بهذه الطريقة.

نهضت واتّجه نحو النافذة. وسرّح نظره في المنظر، دون أن يرى شيئاً.

راح يُفكّر، ويحسب، ويُعدّ خطة بمَلَكةِ تركيز جعلت منه أحد الدّ الخصوم الذين واجهوا أعداء بريطانياً العظمى. وكان مساعدوه يعرفون ذلك تماماً.

كان ذلك بالنسبة الى تايرون تمريناً للإرادة والقدرة. وكان الأمر نوعاً ما غوصاً في ذاته ليجد العون متى احتاج الى ذلك.

لم يكن في وسعه بالتحديد وصف السياق الذي ينطلق في ذاته عندما يُخيَّل إليه عدم وجود أي حل لقضية ما أو عندما يجد نفسه في حالة تقوده الى الإخفاق.

وفي تلك الحالة، كان شيء ما في داخله يطلب النجدة وكانت النجدة تأتي بشكل قد يعتبره الآخرون عجائبياً. على كل حال، كان يعرف بالتالي ما ينبغي عليه أن يفعل حقّاً، تماماً كما لو

أنه يرى التفاصيل تأخذ مكانها، مثلما يحصل في العمليات العسكرية.

كان ذلك عطيّة من الله.

إلتفت. كانت شقيقته تُحدِّق به، راجيةً. إبتسم لها، ففهمت انّها انه وضع يده على الحل مرّة جديدة.

ـ هلاّ أمرتِ بإعداد عربة تكون جاهزة في الحادية عشرة والنصف: سوف تذهبان إلى كان، أنتِ ونيڤادا..

راحت ليدي ميريل تنظر إليه مندهشةً دون أن تنبس ببنت شفة، فيما كان يشرح لها بالتفصيل ما ينبغي عليها عمله.

في طريقهما إلى كان في عربة مكشوفة يجرّها جوادان متشابهان تماماً، كانت ليدي ميريل تتحدّث الى الفتاة الجالسة الى جانبها بشأن حفلة الرقص التي سوف تشاركان فيها خلال السهرة.

ـ سوف نتناول طعام العشاء في القيلاّ، ثم نذهب عند ليدي بريغ. لقد قطعتُ وعداً باصطحاب نحو عشرين شخصاً معي؛ ولو حذا حذوي كل أصدقائنا، لكانت السهرة ممتعة للغاية.

ـ هذا ما أرجوه تماماً، أجابت نيڤادا. وأخوكِ... مستر ستروم، هل يُحبّ الرقص يا تُرى؟

ـ تايرون بارع في الرقص وفي كل التمارين الجسديّة، أجابت ليدي ميريل. إنه متزلّج ماهر، ولاعب پولو بارع، كما أنه كان في شبابه من خيرة لاعبي الكريكت.

ـ كم من المواهب في رجل واحد! قالت نيڤادا.

www.rewity.com/vb

ولم تستطع ليدي ميريل أن تتبيَّن ما إذا كان قولها هذا مديحاً أم انتقاداً.

ـ لطالما كنتُ فخورة بتايرون، أضافت. ولأنه فاتن وغنيّ، فإن المعجبات كثيرات، بالتأكيد، بالرغم من أنه ليس من أنصار النساء.

ـ ولماذا لم يتزوَّج أبداً؟

ـ لطالما طرحتُ السؤال على نفسي، أجابت ليدي ميريل. إنه متطلِّب جداً. أعرف جيداً نساء جميلات كان يُسعدهنّ الزواج منه بيد أنّه لم يتكبَّد عناء وضع خاتم الزواج في إصبعهنّ.

ـ ربما ينتظر الحب الكبير؟

هذه المرة كانت نبرة السخريّة ظاهرة تماماً.

ـ أوَليس هذا ما نتوق إليه جميعاً؟

ـ لن أصل إلى هذا الحدّ، أجابت نيقادا بسرعة. فأنا أجد أن الحب هو ضعف يسبِّب لي الغثيان.

ـ يا عزيزتي الصغيرة، لا يمكن أن تُفكِّري في ذلك بصدق.

ـ بلى! أجابت نيقادا بنبرة تَحَدّ. وبالتأكيد، لن يصدّق أحد ما أقوله حتى أصير حقاً عانساً، أكرِّس نفسي لأعمال الإحسان في سنوات عمري الأخيرة.

ـ أنتِ تمزحين!

ـ البتّة، قالت نيقادا. لا أستطيع تصوّر نفسي في الحالة التي يصل إليها الرجال ساعة يبوحون لي بحبّهم، مرتجفين، دامعي العيون من السُّقم، محاولين وضع أيديهم المحمومة عليّ إنّ هذا الأمر ليُمرضني.

ـ لم تكن أمك تتكلّم هكذا. كانت ترغب في أن تُغْرَم وتتزوّج وأن تُنجِب أولاداً. أنا أكيدة من أن عدم إنجابها لطفل آخر شكّل كارثة، تماماً كما حصل معي.

ـ ربما تأكلها الضجر بعد ولادتي.

ـ ما تقولينه ليس صحيحاً، وأنا موقنة من ذلك، صرخت ليدي ميريل. لم تسنح لي فرصة مناقشة هذا الموضوع مع أبيك، ولكنّي على يقين من أن أمك كانت ستكون في غاية السعادة لو قُيِّض لها إنجاب شقيقة لكِ أو شقيق.

ـ كان يرغب أبي في ابن، على ما أعتقد. لم يكن يهتمّ، بوجه خاص، بولادة فتاة له.

ـ هذا مستحيل، قالت ليدي ميريل بهدوء. نيقادا، دعيني أسديك نصيحة صغيرة: إذا شئت الحب، فعليكِ أن تهبي نفسك.

ـ لكنّي لا أريد الحب، قالت نيقادا بحزم. إنه آخر شيء قد أحتاج إليه. أنا مسرورة كما أنا، إلاّ أنَّ أحداً لا يُريد فهم ذلك. أيا إلهي! فلماذا أهتمّ بالرجال إذا كان يروقهم أن يكونوا مثاراً للسخرية بسببي؟ إنهم قادرون على الدفاع عن أنفسهم، أليس كذلك؟

ـ هل هم حقاً قادرون على ذلك، سألت ليدي ميريل. إنه سؤال أمّ حريصة. هل يمكن لشاب مفتون بفتاة مثلك، بوحشية وقاح، أن يفهم أن لا فائدة منه في نظركِ سوى أنه مرافق ممكن لحفلات الرقص؟

ـ سبق أن قلتُ لك، ليدي ميريل، إن الرجال يتعلّمون

الدفاع عن أنفسهم! إنهم كبار وأقوياء بما يكفي للتوصّل إلى ذلك.

كانت نيفادا تتكلّم باندفاع. فأجابت ليدي ميريل:

ـ السّيء في الأمر أنّ الرجال لا ينضجون حقاً أبداً. إنّهم يبقون أطفالاً في قرارة أنفسهم خصوصاً بالنسبة الى أمّهاتهم طبعاً. إنهم بحاجة لأن نسهر عليهم، ونحبّهم، لأن نشجّعهم ونلهمهم.

إنفجرت نيفادا ضاحكةً.

ـ ألهِم مَن أرغب في إلهامه، قالت بصوت لا يخلو من التبجّح. على أني لا أنوي السهر على رجل، كما لا أودّ أن يهتمّ أحدهم بي. إن كل الرجال مغفّلون. التسلية هدفهم قبل الوقوع في الغرام. أما فيما بعد، فلا شيء البتّة.

لم يكن بمقدور ليدي ميريل سوى الصمت.

كانت الجياد تخبّ بمحاذاة السّاحة التي تحفّ بها أشجار السّرو، في اتجاه المرفأ، الواقع في أقصى المدينة.

لم يكن سوى مرفأ صغير، بيد أنه كان يعجّ بيخوت من كل القياسات. وراحت نيفادا تفتّش بانفعال عن «مولاي»، يخت تايرون ستروم.

وبدلاً من أن يكون أبيض اللون تماماً شأن بقية اليخوت التي يملكها فرنسيّون، إنكليز أو إيطاليون، فقد كانت لـ«مولاي» مقدّمة مطليّة بالأسود والذهبي. وكان خطّ أسود قاتم يعلو خطّ الغاطس. ثم إن المركب كان أكثر طولاً ودقةً وأناقة من المراكب المجاورة.

وبينما كانت الجياد تتوقّف بالقرب من العبّارة، قالت ليدي ميريل:

ـ ليس الوقت ظهراً تماماً. نيفادا، أريد أن أصل لحظة الى فندق كارلتون لزيارة صديقة مريضة هي ليدي وستبورن. لن أبث أن أعود. هلاّ أعلمتِ أخي بأنني سأوافيكما وقت الغداء؟

ـ سوف أخبره بذلك، ليدي ميريل.

كان الخادم قد نزل عن مقعده ليفتح باب العربة المكشوفة. فنزلت نيفادا ودلفت إلى العبّارة. كان تايرون ستروم ينتظرها عند الجسر.

وفي حين كانت العربة تبتعد، صعدت الى متن اليخت وهي تمدّ يدها، قائلةً:

ـ رجتني أختك أن أخبرك بأنها ذهبت لزيارة دوقة وستبورن وأنها سوف تعود وقت الغداء.

ـ يا لرهافة حسّها! أجاب تايرون ستروم بصوته الخفيض. هذا يعني أنني سأتمتّع بإرشادك الى تفاصيل مركبي، أنت وحدك فقط.

ـ سوف يكون ذلك رائعاً، أجابت نيفادا مبتسمةً.

كانت تدرك كم هي ساحرة في ثوب الموسلين الأبيض المزيّن بشرائط من اللون الأزرق الفيروزي تنسلّ في ثقوب مطرّزة حسب الطريقة الإنكليزية.

كانت قبّعتها العريضة الطرف مزيّنةً بشرائط مماثلة لشرائط الثوب وبباقة من زهر أذُن الفأر. كانت أشبه بنموذج حقيقي

للفتاة طالما لم نغرق في أعماق عينيها الخضراوين المتحرِّكتين ولم نلاحظ السِّحر الفتَّان لشفتيها المكوَّرتين.

تقدَّمت تايرون ستروم الى الصالون حيث أدهشها الديكور على متن هذا اليخت الفاخر.

كان كل شيء فيه صارماً، ذكوريّاً ومركَّزاً على العمل. لا شيء غير ضروري. لا وسائد ناعمة ولا لوحات معلَّقة على الحيطان كما في كل اليخوت التي سبق لها وزارتها.

ـ قد نبدأ بفنجان من القهوة، قال تايرون ستروم من خلفها. هل تحبّين القهوة التركية؟ لقد عشتُ زمناً طويلاً في الشرق حتى صرت أفضّلها على القهوة الفرنسيّة.

ـ أنا أيضاً، أجابت نيقادا.

ظهر رئيس الخدم في تلك اللحظة. تحدّث إليه تايرون ستروم بلغة غريبة لم تفهمها. ولمّا راقبت الرجل، حسبت أنه قد يكون صينياً.

عندما صارا بمفردهما من جديد، سألته:

ـ لماذا لا تُشغِّل خدماً من الإنكليز؟

ـ إن كل أفراد طاقمي من الصينيّين أو الماليّين، قال تايرون ستروم. إنَّهم بحّارة ممتازون وهم يتكيَّفون مع كل الظروف تقريباً.

وأضاف بابتسامة خفيفة:

ـ إننا لا نرسو دائماً في مرافىء مريحة كمرافىء جنوبي فرنسا.

ـ أين كان يختك قبل رسوّه هنا؟

ـ في مناطق مختلفة من العالم.

ـ هل أفهم من ذلك أنك لا تريد إعطائي المزيد من التفاصيل؟

ـ ولماذا يهمّك أن تعرفي ذلك؟

ضحكت بطلاقة.

ـ تُعاملني كما لو كنت جاسوسة. هل تعتقد أنَّني أعمل لصالح الروس؟

ـ أعتقد أنك خطرة بما يكفي لعدم الإقتراب منك دون حذر، أجاب تايرون ستروم.

ـ هل أعتبر هذا إطراءً؟

ـ إذا راقكِ أخذه على هذا النحو، فأنتِ حرّة في ذلك.

كان ما يجري مبارزة بالكلمات وكان يعرف أنها تحب هذا النوع من الحديث.

ـ أنا أظنّ أنك تحيط نفسك بالأسرار عبثاً، سيِّد ستروم؛ أنا أحذر من هالة الفروسيّة التي اكتسبتَها.

ـ تحذرين؟

ـ نعم، وقد يبدو لك ذلك مثيراً للإهتمام. هل تراك تلتذّ بموقع أبي الهول الذي تتّخذه؟

ـ لم يُقيَّض لي بعد الكثير من الوقت للتفكير في وضعي الشخصي، أجاب تايرون ستروم. أما الآن وقد أثرتِ الأمر، فإني أشعر مع ذلك بأن تلك الخاصّة هي بالأحرى ميزة صالحة.

www.rewity.com/vb

ـ لكنَّ هذا لن يمنعني من محاولة إنزالك من عليائك وجعلك تخبرني الكثير الكثير عنك.

ـ إنه مدعاة لغروري أن أرى نفسي مدار اهتمامك في حين يكثر المعجبون بك.

ـ هل بإمكاني القول إن المكان متوفّر دائماً للمعجبين الجدد؟

لم يتّسع له الوقت للإجابة، فقد عاد الخادم الى الصالون يحمل في يده طبقاً عليه فنجانان من البورسلين مركّزان في قاعدة من الذهب المشغول والمرصّع بالفيروز.

ـ أواه، كم هذا جميل! صرخت نيڤادا.

ـ إنه هدية قُدِّمت إليَّ في الشرق، قال تايرون ستروم.

أفرغ الخادم القهوة الكثيفة والمحلاّة في الفناجين وما لبثت نيڤادا أن نهضت لتتأمّل الفيروز وعمل الترصيع.

ـ إنها حقاً غاية في الجمال، قالت.

ـ لو كنتُ في الشرق، لوجب عليّ لياقةً أن أجيبك: «إنّها لكِ!»، قال تايرون ستروم. لكنّ الواقع هو أنني أنانيّ بما يكفي للإحتفاظ بها لنفسي.

ـ يا للكرم! قالت.

ـ لو كانت ملكك، ماذا كنتِ فعلتِ بها؟ سألها.

ـ كنت أرشف فيها القهوة، بالتأكيد، قالت نيڤادا. وهذه القهوة لذيذة.

ـ لقّنتُ رئيس الطهاة أن يصنعها تماماً كالأتراك: سوداء كالشيطان، ساخنة كجهنّم وعذبة كالحب.

ـ هل تظنّ أن الحبَّ عذب؟ سألت نيڤادا.

ـ هذا مرتبط بالشخص الذي نُحبّ، أجاب تايرون ستروم.

ـ إنك تتكلّم مثل شقيقتك. حدّثتني عن الحب، فقلت لها إنه دون ان يُخالجني أبداً وانفعال أمقته وأحتقره.

ـ من النادر أن نعثر على رأي حاسم كهذا عند شخص بمثل عمرك.

ـ ان تلبث أن تقول إنّني أصغر من أن تكون لي آراء خاصة! قالت نيڤادا

ـ اتجنّب تماماً أن أقول تفاهة كهذه، هي أيضاً خطأ ذريع.

ـ إذاً، إنك تسلّم بأن تكون لي آرائي الخاصة؟

ـ بالتأكيد، أجاب تايرون ستروم. إنكِ إنسانة واقعية جداً. وهم المتردّدون والمكبوتون في هذا العالم يخافون من أفكارهم الخاصة.

ـ إنك تُظهر لي غاية اللطف، مستر ستروم، بحيث أتساءل هل تُراك تخفي فكرة ما، قالت نيڤادا.

ـ لا أفهم ما الذي يدعوك الى قول هذا؟

سكب لها فنجاناً آخر من القهوة الحلوة وهو يتكلّم. ولاحظت انه لم يلمس فنجانه، ففكّرت أنه ربما لا يحبّ المشروبات الحارة العذوبة بالرغم من ادّعاءاته.

لا لأنّ ذلك يهمّها. فقد كانت ببساطة تُجهد نفسها لدفعه على الكلام بغية معرفة رأيه فيها.

ـ كم مرّة وقعتَ في الغرام؟ سألته بلهجة تحدّ.

- لو أجبتكِ: «أبداً». لما صدّقتِني، ولو قلتُ لك: «غالباً»، لازداد فضولك.

- إنك واثق تماماً من نفسك.

- ولِمَ لا؟ كلنا يعرف شخصيّته، وقدراته وخصوصاً طموحاته.

نظرت إليه بدهشة.

- هل تعتبرني طموحة؟

- كلّنا طموح، بشكل أو بآخر.

وتموّجت رموشها قليلاً عندما قالت:

- يبدو لي أنك لا تتكلم عن طموحات الناس المألوفة: الرغبة في الأموال، والألقاب أو النجاح.

- تُظهرين نباهةً، قال تايرون ستروم. إنّ في جمجمتك عقلاً، ولم ألحظ هذا حتى الآن.

- أعتبر ما قلته إهانة تقريباً، سألت بتعجّب.

- إعتقدتُ أنك سوف تعتبرينه مديحاً!

- ليس بالطريقة التي قلتَه بها.

- في هذه الحال، أرجوكِ المعذرة. خُيِّل إليَّ أنكِ من صنف النساء، اللاّتي تفضّلن أن يكون الذكاء معيار الإعجاب بهنّ لا الجمال.

- أنا...

تنهّدت وقالت بصوت متهدّج:

- الجوّ حار هنا، أليس كذلك؟

- سوف يكون النهار حاراً اليوم، قال تايرون ستروم. سوف أفتح نافذة أخرى.

نهض وهو يتكلّم. فلاحظ أن نيفادا ترفع يديها الى جبينها وقد أغلقت عينيها. ثم قامت بجهد لتفتحهما وتقول:

- أشعر فجأة بوجع في الرأس. هل لي بكوب من الماء، من فضلك؟

إتّجه نحو الباب وهو يرمقها بنظره. رفعت الفتاة يديها الى جبينها من جديد، كما لو انّها تتنفّس بصعوبة. ثمّ خلعت قبّعتها الكبيرة ورمتها أرضاً بالقرب منها، كما لو أنها لا تعي ما تفعل.

- مستر ستر... وم! قالت متلعثمةً.

صعب عليها التلفّظ بهذا الإسم وبدا لها صوتها صادراً من البعيد. وفجأة نظرت إليه، في الجهة المقابلة من الصالون، وحملقت عيناها. وفهم تايرون ستروم أن فكرةً راودتها، فكرة جعلها تصرخ صرخة ارتياب واتّهام.

ولكنّ، فيما كانت شفتاها تجهدان للنطق بالكلمات، إنهارت على الكنبة.

إنتظر تايرون ستروم قليلاً ثم حملها بين ذراعيه، ونقلها بعناية عبر الممشى الضيّق.

كان باب إحدى الغرف مشقوقاً. فتحه بقدمه. كانت الغرفة، شأن الصالون، منسّقة بذوق ودقة. وضع تايرون ستروم نيفادا على السّرير الصغير.

كان ذراع الفتاة يتدلّى خارج الفراش، فأعاده بعناية

بمحاذاة جسمها. ثمَّ أرخى ستار النافذة ليمنع الشمس من النفاذ الى الغرفة. وخرج تايرون ستروم أخيراً، موصِداً الباب خلفه.

وضع المفتاح في جيبه وصعد الى سطح المركب حيث طلب من أحد أفراد الطاقم أن يذهب في طلب عربة أُجرة.

حضرت العربة فطلب تايرون ستروم من الحوذيّ أن يُقلّه الى فندق كارلتون.

تَحَتْ نيقادا عينيها ثم أغلقتهما لفرط ما كان يبدو وضعها صعباً.

كان رأسها ثقيلاً وضبابيّاً، وفمها جافاً؛ وبالكاد تمكنت من بلع قليل من الريق. بدا لها عقلها بعيداً جداً، كما لو أنه يسوح في العتمة.

وشيئاً فشيئاً، إستعادت وعيها وفتحت عينيها من جديد.

كان أوّل شيء لفت نظرها أغراضها الخاصة وهي مكدّسة في ما بدا لها مكاناً مقفلاً. وبالفعل خُيِّل إليها أنها في قطار، إذ تناهى إليها صوت محرّك.

لماذا إذاً؟

ثمّ، لو أنها في قطار، لوُضعت حقائبها في الحافلة المخصّصة لهذا الغرض. ماذا إذاً؟

بقيت فترةً شاردة النظرات، تجد صعوبةً في تركيز عينيها، ولا تشعر إلاّ بألم رأسها الذي بات مع ذلك محتملاً.

www.rewity.com/vb

جلست، فرأت حينها كوّة المركب، فأدركت فجأةً أنها ليست في قطار بل في يخت.

أخيراً، عاد تايرون ستروم الى ذاكرتها. رأت وجهه بدقة متناهية، تعبير عينيه وابتسامة الهزء على شفتيه.

كانت على وشك توجيه اللوم إليه: تريد اتّهامه بشيء ما. وتذكّرت فجأةً:

القهوة!

«ما من شك في أنّ مخدّراً دُسّ فيها.

وضعت نيقادا رجليها على الأرض. نهضت بعناء لتتّجه نحو الكوّة.

وبالرغم من فقدانها التوازن وانزعاجها، وصلت أمام الكوّة، فما شاهدت سوى البحر، لا شيء غير البحر يمتدّ حتى الأفق حيث يلامس السّماء.

ماذا حدث؟ أين هي الآن؟

خُيِّل إليها لفترة أنها تحلم. ثمّ، إذ التفتت، شاهدت كدسة أغراضها، حقيقةً وواقعاً بين أثاث الغرفة.

كان ثمّة طاولة للتزيّن فيها جوارير عدّة، وخزانة للثياب، وجوارير أخرى منضّدة بحيث يشكّل سطحها طاولةً.

كان الفراش الذي نامت عليه أكثر وسعاً من المعتاد، لكن رغم ذلك، لم يكن يُشبه ذاك الذي وُضع في تصرّفها على متن عابرة المحيط التي أقلّتها من أوروبا.

كل شيء في الغرفة كان بسيطاً ومميّزاً. وتذكّرت عندئذٍ ان الصالون أيضاً كان كذلك.

كانت المحرّكات ترتجف تحت قدميها وبدا لها أنّ صوتها يردّد دون ملل السؤال نفسه:

ـ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

لماذا خدّرها تايرون ستروم والى اين تُراه يأخذها؟

كان عليها إيجاد الجواب. والحق يُقال إنّها هي التي كانت تطرح الأسئلة لا المحرّكات

توجّهت نحو باب الغرفة، متوقّعة أن تجده مغلقاً.

أدارت القبضة ففُتح الباب. تردّدت في الولوج الى الممشى.

كانت قبل لحظات قد ألقت نظرة خاطفة على المرآة وهي تمرّ امامها. رجعت إليها لتتفحّص نفسها بمزيد من الإنتباه.

لاحظت أنّ ثوبها مدعوك وأن شعرها مشعّث.

ربّما تقلّبت وهي فاقدة وعيها.

كانت تشعر أيضاً بالحرارة، كما لو أنها حُجزت لفترة طويلة. كم مضى عليها غارقة في هذا الرقاد الإصطناعي؟

على كل حال، كانت تشعر بالعطش، بعطش كبير.

وإذ نظرت حولها، وقع نظرها على باب آخر في غرفتها. فاتجهت حمّام!

كانت تعرف أنّ ذلك ترف غير اعتيادي على متن يخت خاص. فغرفة الحمّام تُشكّل عادةً جزءاً من المقصورة، التي يخصّصها صاحب المركب لنفسه، في حين يكتفي المدعوّون بغرفة حمّام مشتركة.

وجدت فوق كرسي الحمّام صنبورين كُتب على أحدهما «مياه

مالحة»، وعلى الثاني «مياه للشرب». وإذ وقعت على قدح، ملأته نيڤادا وشربت منه بشراهة.

ولمّا انتهت من الشرب، عرفت ما يعنيه الأميركيون بلفظة «مغطس». فقد كانت متأكّدة من أن عليها الإكتفاء بماء البحر. ولكنْ لا. كان في غرفة الحمّام دوش(*) أيضاً.

تأمّلته لحظةً ثم اتّخذت قرارها. توجّهت الى الباب فأغلقته ثم خلعت ثيابها.

بعد الإستحمام، تراجعت حدّة صداعها بشكل كبير.

فتحت أقرب الحقائب إليها فعثرت في داخلها على ثوب مكويّ بدقّة ومطويّ بعناية بين ورقتين حريريّتين.

كان هذا عمل الوصيفة الفرنسيّة. ولكن، مَن أرسل بأغراضها الى كان، وما هي التفسيرات التي أُعطيت لسكان الڤيلاّ تبريراً لرحيلها المفاجىء؟

قرّرت نيڤادا حلّ هذه المعضلة. ولذلك، ارتدت ثيابها وسرّحت شعرها بالفرشاة ذات القبضة الذهبية الموضوعة في حافظة أدوات الزينة، المصنوعة من جلد التمساح. كانت عيناها الخضراوان تشعّان ببريق مقاتل عندما تأمّلت نفسها في المرآة.

بيد أنّها شعرت بنفسها عصبيّة بعض الشيء حين فتحت باب غرفتها لتبحث عن تايرون ستروم. لكنّها لم تكن أبداً لتُقرّ بهذا الشعور.

لم تفهم نيڤادا تصرّف تايرون ستروم هذا وقرّرت أنّ من

(*) رشّاشة مياه (م).

واجبه إعطاءها بعض التفسيرات المنطقية مشفوعةً بالإعتذار.

عبرت الممشى حتى بلغت الصالون.

فكّرت في أن تايرون ستروم قد يكون موجوداً على الجسر، لكنّها وجدته في الصالون، يكتب خلف مكتبه.

رفع رأسه عند دخولها، دون أن تبدو عليه أيّة دهشة، بل رصانة لم تعهدها فيه من قبل.

تقدّمت. وبالرغم من معرفتها بفتنتها، لم ترَ في عينيه الإعجاب الذي اعتادت رؤيته في عيون الرجال بأسرهم.

- ها قد استيقظتِ!

- نعم استيقظت، أجابت نيڤادا، وأريد أن أعرف لماذا أنا هنا ولماذا خدّرتني؟

- لنتحاشى النقاش، أجاب بهدوء.

- بشأن ماذا؟

- ربما لم تكوني ترغبين في مغادرة كان كما أشتهي.

- الى أين تأخذني؟ إنّه لعمري تصرّف غير اعتيادي.

- للأوضاع غير الإعتيادية علاجات غير إعتيادية، أجاب تايرون ستروم.

كانا واقفَيْن معاً، إلاّ أن المركب إهتزّ بشدّة فجلست نيڤادا على مقعد عالي الظهر، الى جانب المكتب.

ولاحظ تايرون ستروم أنّها تتمالك نفسها بصعوبة بيد أن الغضب في عينيها لم يخفَ عليه.

- مستر ستروم، قالت بنبرة باردة. قُلْ لي بالأحرى ما هي نواياك قبل أن آمرك بالعودة ببختك وإعادتي الى كان.

جلس تايرون ستروم خلف مكتبه واستقرّ بارتياح في مقعده.

- أنا أصطحبك الى أفريقيا، قال لها. فكّرتُ أنّ الرحلة قد تكون مهمّة لتربيتك.

- الى أفريقيا! صرخت نيغادا، مذهولةً.

كان قد خُيِّل إليها بشكل غير واضح أنّهما ربّما يبحران نحو مالطا أو جزر الباليار.

- إنه لأمر سخيف! قالت بغيظ. تعرف تماماً أنك لا تستطيع إصطحابي هكذا دون أن تشرح لشقيقتك سبب رحيلي ومع مَن أنا موجودة.

- إسمحي لي أن أكون صادقاً معكِ، قال تايرون ستروم. لقد سُرَّت شقيقتي بالتخلّص منكِ.

- هل تعني أنّ ليدي ميريل... مشاركة... في عملية الخطف هذه؟

- إذا أردتِ التعبير عمّا حصل بهذه الطريقة، فالجواب نعم.

- لم أسمع في حياتي قط كلمات مزعجة كهذه! لقد كنتُ أعتقد أن بإمكاني الوثوق بها لتعاملني بلياقة، فهي كانت صديقة لوالدتي. ماذا سيكون موقف والدي عندما يعلم بذلك؟

- أواه! على الأرجح، سوف لن يعرف شيئاً قبل شهر، أو شهرين، أكّد تايرون ستروم. أما فيما يتعلّق بأختي، فافهمي في النهاية أن الأمّ مستعدّة للدفاع عن ابنها كما تُدافع النمرة عن صغارها.

- إذاً، فإن قلقك على داڤيد هو في أساس عدم اللياقة هذه؟

- تماماً، أجاب تايرون ستروم. قلقي العظيم على داڤيد.

- وهل تعتقد أنه سوف يسمح باختفائي بهذه الطريقة، دون أن يسأل عمّا جرى لي؟

- في السّاعة الراهنة، يتّجه داڤيد أيضاً نحو افريقيا، غير أن طريقيكما لن يلتقيا.

- لقد أرغمته على الرحيل بالرغم من أنه قرّر البقاء معي؟

- بل تطوّع للرحيل بعد أن قرأ رسالتكِ.

- أية رسالة؟

- الرسالة التي أرسلتِها إليه؛ وهي بمنتهى الظرافة. لقد أوحيتِ له فيها أنك بُعَيد مغادرته الڤيلاّ للعب التنس عند صديقه، تلقّيت رسالة من أبيكِ فاضطررت للعودة الى أميركا في الحال.

كانت نيغادا تنظر الى تايرون ستروم جاحظة العينَيْن، فيما أضاف:

- .... قلتِ له أيضاً إنك ستكونين أبداً شاكرةً له صداقته، لكنّ قلبكِ سوف يبقى في البلد الذي أبصرتِ فيه النور وحيث ترغبين في العيش.

سكت، ونظراته مركّزة على وجه نيغادا. ثم أضاف:

- ... كانت رسالة ولا أظرف، من تلك التي يعتبرها الشاب بمثابة كنز ولا تتركه تعيساً أو فاقداً للأمل الى حد التفكير في الإنتحار.

- تجرّأت على كتابة رسالة كهذه وتذييلها بتوقيعي؟

كانت نيغادا تنفث كلماتها تقريباً.

www.rewity.com/vb

- إنّ خطّك سهل التقليد. فليس فيه ميزة خاصة.
- إذاً، ارتكبت تزييف رسالة بالإضافة الى جرائمك الأخرى؟
- وهي موهبة تبيّن لي أنها مفيدة للغاية في مختلف فترات حياتي.
- كيف تجرّأت على التصرّف معي بهذه الطريقة!
- أنتِ أجبرتني على هذا.
- هل تأخذ حقاً تهديدات داشيد السخيفة على محمل الجدّ؟
- أنا لا أصدّقها فحسب، بل اعلمي أنّني منعته في آخر لحظة من تنفيذها، أجاب تايرون بصوت قاس.
- أنا لا أصدّقك. إنّ الرجال الذين يُهدّدون بالإنتحار إنّما يتظاهرون بذلك.
- إنّ خبرتك بالرجال لا تفوق خبرتي بهم.

كان ما قاله حقيقة لا يُمكن دحضها، فأجابت نيقادا التي كان غضبها يتنامى:

- هذا لا يبرّر كونك أحضرتني الى هنا، وخدّرتني بقهوتك اللعينة وكونك كتبتَ أيضاً رسالةً باسمي. أنا أُصرّ على أن تعود بيختك وتُرجعني الى فرنسا.

وقرأت في عينيه رفضاً قاطعاً، فسلّمت قائلةً:

- ... إذا كنتَ تخاف هذا القدر على ابن أختك العزيز، فأنزِلْني في مرسيليا. لقد ضقتُ ذرعاً بكَ وبعائلتك. وأُفضّل أن أعود الى إنكلترا.
- كان هذا الأمر ممكناً، بالفعل، قال تايرون ستروم، ولكنْ ثمة شيئاً آخر.

- ماذا أيضاً؟
- لقد قرّرتُ أنكِ في حاجة الى درس. يجب أن تتعلّمي عدم أذيّة الرجال كما فعلتِ بابن أخي. لقد نجا داشيد منك، ولكنْ قد لا يحظى آخرون بهذه الفرصة.
- أنتَ في غاية السخف! والتفاهة! إنّ الرجال قادرون تماماً على الدفاع عن أنفسهم بمفردهم. وإلاّ، فليس من حقّهم الإدّعاء بأنهم رجال.
- صحيح متى كان الأمر يتعلّق بإمرأة طبيعيّة. لكنّك، يا نيقادا لستِ إمرأة طبيعية. أنتِ ظالمة، قاسية القلب، وقد أقول إنك شيطانة!

وقفزت نيقادا من مكانها.

- ما الذي يسمح لك بالتلفّظ بهذه الكلمات! هل تعرف أنك تهينني وأنك تتصرّف كمجرم. سوف تذهب الى السجن، مستر ستروم، لأنك تصرّفتَ بهذه الطريقة.
- لقد فكرتُ في مثل هذه المخاطرة، أجاب تايرون ستروم. ولكنْ، أين لكِ في الوقت الحاضر أن تعثري على شرطي فرنسي، إنكليزي أو أميركي؟ لقد أليت على نفسي عدم إشراك أيّ منهم في عديد طاقمي.

كانت منتصبةً أمامه، تنظر إليه. وكان يعرف أنّها تتساءل عمّا عليها عمله، فلا يقرّ قرارها على شيء.

بعد لحظة طويلة، إجتازت الصالون لتلقي نظرة من النافذة.

- أين نحن؟ وكم من الوقت فقدتُ وعيي؟
- نحن على بعد ثلاثين ميلاً من جبل طارق، ونُبحر في

محاذاة الجهة الأطلسيّة من المغرب. وقد فقدتِ وعيك ثمان وأربعين ساعةً.

- كل هذه المدّة؟

- إن المخدِّر الذي أعطيتُك إيّاه فعّال للغاية. وقد علمتِ أنه يفعل فعله بشكل فوري تقريباً.

كان في أجوبة تايرون الباردة وصوته الخالي تقريباً من أي تعبير شيء مثير للرعب.

وارتمت نيقاد بنزق على الأريكة.

- إذاً، لم أذُق الطعام منذ ثمانٍ وأربعين ساعة. فأنا بالطبع شديدة الجوع.

- إنّه أمر واضح. ولكنْ، ثمة شيء آخر أشرحه لك.

- وما هو؟

- أنا لا أصطحبكِ في هذه الرحلة لإنقاذ ابن أختي فحسب، وكذلك داندولاند الشاب؛ بل أيضاً لأرى إذا كان من الممكن تحويل ساحرة الى إمرأة.

- أنا... لا أفهم قصدك.

- أشعر بأنك تفهمين قصدي. فحتى الآن، أمضيتِ الحياة تعطين الأوامر للناس فيُنفّذونها لأنك تدفعين لهم ثمن ذلك. ما اودُّ اكتشافه هو هل أنك تملكين شيئاً تُقدّمينه لكائن من كان، لرجل أو امرأة، عدا مالكِ. خُيِّل لنيقادا أنّها سمعت هذه الكلمات من قبل. وتذكّرت فجأةً أنّها توجّهت بها الى دافيد، في الحديقة، عشيّة وصول تايرون ستروم.

- لقد تنصّتَّ إليّ! قالت متّهمةً. كان عليّ أن أشكّ في الأمر. كنتَ في غرفتك، وأنا ودافيد في الحديقة، تحتك مباشرةً.

- بالفعل، لقد سمعتُ كلّ شيء، اعترف تايرون ستروم. لم أسمع في حياتي امرأةً مقيتةً وعديمة الإحساس مثلك، مهما يكن عمرها، تتحدّث إلى رجل خطيبته الوحيدة أنه كان من الجنون بحيث أحبّها.

كان صوته يجرح كالسوط، ونيقادا تحدّق به مذهولةً.

- أفهم الآن غضبك، قالت، ولكن، ألا تجده في غير محلّه؟ فأنا، على كلّ حال، لم أطلب من دافيد أن يُغرَم بي، ولا من شارلز أيضاً.

- لا، ولكنك لم تفعلي سوى التأكّد من وقوعهما في غرامك. فوق ذلك، كنتِ مستعدّة لتجربة أساليبك عليّ.

أغرق في الضحك ثم أضاف:

- لسوء الحظ، فيما يتعلّق بي، إنك افتقرتِ الى النباهة. ذاك أنّ أداءكِ كان رديئاً، حتى لو أخذنا بعين الاعتبار تجربتك المحدودة.

كان الإحتقار الذي يُرهقها به أكثر إهانةً من الغضب.

- أريد أن آكل شيئاً، قالت مقطّبة الوجه.

- أمر سهل، فالطعام متوفّر على متن المركب. ولكنْ، ان أردتِ تناول الطعام، فما عليكِ سوى تدبير نفسك بنفسك. أظن أنك تعرفين أين المطبخ؟

نظرت إليه بحذر.

- لماذا... لا يُحضر أحد الخدم الطعام لي.

ـ لأنني أظن أنّه من الأفضل لك أن تهتمّي بحياتك اليومية؛ للمرة الأولى في حياتك؛ إكتشفي ان المال لا يمكنه أن يشتري لكِ كلَّ شيء.

ـ هذا أمر سخيف!

ـ إنه رأيك، بدون شك، ولكنْ دعيني ألفت نظرك الى أنني صاحب اليخت، أتصرّف فيه كما يحلو لي. إذا كنتِ جائعةً، فأعدّي لنفسكِ الطعام أو إستغنِ عنه. آه! ثمة شيء آخر: لن يكون أحد في خدمتك في الغرفة.

ـ كيف تجرؤ على معاملتي هكذا؟

ـ ليس الأمر بهذه الصعوبة، أجاب تايرون ستروم. ربما علّمك هذا ألاّ تسافري عبر العالم دون الحماية اللازمة. أنا لا احبُّ النساء المجنونات الى حدّ يتصوّرن معه أنّ بإمكانهنّ الإستغناء عن وصيفة ترافقهنّ.

ـ على كلّ حال، انا لا أتمنّى بالتأكيد أن تكون أنت من يتولّى حمايتي، أجابت نيڤادا بعنف.

ولم تأتِ على نهاية جملتها حتى فهمت خطأها. فالواقع انّ الابتسامة التي ارتسمت على وجه تايرون ستروم كانت ابتسامة الرجل الذي يعاند طفلاً مشاكساً أو حيواناً شموساً.

ونهَضَتْ.

ـ أين ذلك المطبخ؟ سألت.

ـ في الخلف، كالعادة. لن يلبث موعد الغداء أن يحين، سوف تجدين رئيس الطهاة هناك. إنه صينيّ. وبالتالي، لن تستطيعي التحدّث إليه.

وإذ شعرت بأن المزيد من الجدال لن ينفعها في شيء، خرجت نيڤادا من الصالون وأغلقت الباب خلفها بعنف.

عثرت نيڤادا على المطبخ دونما صعوبة في مؤخرّة المركب. وقد كان هذا اليخت بحق حديثاً للغاية، وأفضل تجهيزاً من كل اليخوت التي سبق لها أن رأتها.

كان أحد الشباب يُعاون رئيس الطهاة. وكان الإثنان يلبسان ثياباً ناصعة البياض، ويحضّران طعام الغداء. فأحسّت نيڤادا من رائحة الطعام اللذيذة كم كان شعورها بالجوع كبيراً.

ولمّا كان التحدّث الى رئيس الطهاة مستحيلاً، فقد راحت تُفهمه مُرامَها بالإشارة. وهكذا، دلّها على مقعد خفيض في الجهة الأخرى من الطاولة التي يستعملها. كان الفرن خلفها؛ وشاهدت نيڤادا في داخله قطعة لحم تُشوى.

بالرغم من هدوء البحر، فقد كان الجلوس أفضل لها من البقاء واقفةً؛ وهكذا استراحت على المقعد الخفيض، وراحت تراقب رئيس الطهاة وهو يعدّ برشاقة مكمّلات اللحمة: فطر صغير طازج، باذنجان وبزيلاً صغيرة الحجم.

وشاهدت نيڤادا الى جانب الفرن طبقاً من الهليون، أحد الخضار المفضّلة في القيلاً، والتي كانت تصل كل يوم طازجة من السوق، بعدما يتمّ انتقاؤها من الأراضي الواقعة وسط منطقة نيس.

نضجت قطعة اللحمة؛ فرفعها رئيس الطهاة ووضعها على الطبق، وجعل حولها مكمّلاتها. في تلك اللحظة، ظهر الخادم كما لو انّ أحداً دقّ له الجرس.

كان هو أيضاً يلبس سترةً ناصعة البياض، ولكن ذهبيّة الأزرار.

كان يحمل طبقاً يعلوه بعناية غطاء صغير. وعلى الغطاء الناعم، تلمع ملعقة وشوكة وسكين من الفضّة.

جعل الطّبق على الطاولة. فوضع عليه مساعد رئيس الطبّاخين صحن الهليون والسَلَطة المعدّة ووعاءَين للصلصة. ثمّ غطّى رئيس الطبّاخين قطعة اللحم بغطاء من الفضّة ووضعها على السخّانة فوق الطبق.

أخيراً، وسط ذهول نيقادا، استدار الخادم وخرج من المطبخ حاملاً الطّبق.

عندها فقط فهمت أن الطعام مخصّص لتايرون ستروم. فالواقع أن وجبة واحدة كانت عليه.

ـ وأنا! صرختْ في وجه رئيس الطهاة وهي تدلّ بإصبعها على شخصها.

وجواباً على سؤالها، أخرج قطعة أخرى من اللحم، قطعة نيئة، ووضعها أمامها. دفع نحوها ما تبقّى من الفطر، والبزيلاّ الصغيرة والباذنجان، والكلّ غير متبّل. بعد ذلك، خرج مع مساعده من المطبخ.

مكثت نيقادا برهةً قبل أن تعي الأمر تماماً. وفهمت أخيراً أنهما ينفّذان الأوامر ليس إلاّ. فقد قال لها تايرون ستروم أن تخدم نفسها بنفسها.

جمعت قبضتها ورغبت لشدّة غيظها في أن تدوس قطعة اللحم برجليها.

ثم قال لها صوت واخز من داخلها إنها تعاني جوعاً فظيعاً وإن الغضب لن يُفضي بها إلى شيء.

نهضت ببطء وانتقلت إلى الجهة الأخرى من الطاولة. تناولت قطعة اللحم بلطفٍ بين السبّابة والإبهام وألقتها على المشواة.

أقبل تايرون ستروم من سطح المركب حيث ناقش مع القبطان مدى التقدّم الذي تحقّق خلال النهار.

كان هذا اليخت يستحقّ تماماً شهرته كأسرع مركب من طرازه.

فقد صنعه وفقاً لمواصفاته الخاصة لسبب في غاية البساطة: كان ينبغي عليه أحياناً الخروج من وضع موشك على الانفجار وخالٍ من الأمان؛ فكان عليه حينئذٍ تنفيذ ذلك في أسرع وقت ممكن. ولم يخذلهِ «مولاي» أبداً في مواجهة الخطر.

كان الطاقم هو نفسه منذ وقت طويل وتايرون ستروم على علم بأن أفراده ينفّذون أوامره دون نقاش وبتفانٍ يجده هو نفسه مدعاة للعجب.

ولمّا اتّجه بمحاذاة الجسر صوب الصالون، لم يكن بوسع تايرون ستروم غير التساؤل عما اذا كانت نيقادا قد أحبت طعامها، وهو بدون شك أول طعام أعدّته بنفسها. لقد فكّر تايرون ستروم، وعلى وجهه تعبير حازم، في ان الطريقة الفضلى لتعلّم الطبخ هي الجوع.

تساءل أيضاً كيف ستتدبّر نيقادا أمرها في غرفتها، من دون وصيفة.

www.rewity.com

إذ، بصفتها ابنة مليونير، فإنها لم تفعل أكثر من التقاط ورقة عن الأرض.

كانت من ذلك النوع من الطفيليّات الذي يمقته كثيراً.

فالذين جمعوا ثرواتهم تعبوا كثيراً في جمعها، على الأقل. وفي المقابل، لم تكن زوجاتهم المدلّلات والمغنّجات اللأتي تظنّ ان بإمكانهنّ شراء كل شيء بمالهنّ، تُثرنَ فيه غير القرف.

على الأرجح، سوف تجد نيقادا على متن «مولاي» حياة تختلف تماماً عن تلك التي عاشتها حتى الآن تحت كنف والدها، إنْ في الجادة الخامسة أو في ممتلكاته الشاسعة المنتشرة في أميركا.

عندما عاد تايرون ستروم الى الصالون، كان ينوي استئناف عمله خلف مكتبه. ولكنْ، ما إن جلس وبدأ بتصفّح بعض الأوراق، حتى فُتح الباب ودخلت نيقادا.

كانت ترتدي الثوب الأبيض نفسه الذي كانت تلبسه من قبل، ولكنّ عينيها كانتا تشعّان ببريق لم يكن فيهما قبل الآن. فشعر تايرون ستروم بأنّها تحيك حماقة ما.

ـ ماذا في الأمر؟ سألها ببرودة، أنا مشغول.

ـ أعتقد انك سوف تجد الوقت للتحدُّث إليّ، أجابت.

لم يكن قد تكبّد عناء الوقوف ساعة دخولها، فقال بنفاد صبر:

ـ نيقادا، الواقع أنني مشغول جداً ولا وقت عندي أضيّعه في مناقشات عقيمة. لماذا لا ترغبين في الاستفادة من وضع شائك. مارسي الرياضة.

ـ أنا رياضية بما يكفي لأكون رامية بارعة! أجابت نيقادا وهي تسحب من خلف تنّورة ردائها الفضفاضة مسدّساً سدّدته إلى تايرون ستروم

لم يتحرّك، بل اكتفى بالنظر إليها في انتظار تفسير ما.

ـ إدع قبطانك، قالت نيقادا، واعطه أمراً بإنزالي في أقرب مرفأ.

ـ وإن رفضت.

ـ سوف تجد نفسك في وضع حرج.

كان في صوتها رنّة انتصار عندما أكملت:

ـ لن أقتلكَ؛ فلا رغبة لي في المثول أمام المحاكم بتهمة القتل. وكما تعرف، فأنا لا أستطيع إعطاء الأوامر لطاقمك. لهذا سوف أطلق النار على ذراعك، وهو أمر سيؤلمك كثيراً، وإذا أصرَرْتَ على الرفض، فسوف اطلق النار على ساقك.

ـ ما تقولينه يدلّ على حذاقة، لاحظ تايرون ستروم.

ـ هكذا ترى أنني قادرة على الدفاع عن نفسي. وقد تمرّنتُ على الرماية في مزرعة أبي، في كولورادو، كي أكون واثقة من نفسي في مناسبات كهذه.

ولمّا لزم تايرون ستروم الصمت، أضافت:

ـ ... هيّا... مستر ستروم... إنك تعرف تماماً أنك خسرت. إدع قبطانك الى هنا وإلاّ فإني أعدك بوضع تهديدي موضع التنفيذ.

ـ لا أريد أن يترك مركزه، أجاب تايرون ستروم. لهذا السبب سوف أخطره بالأمر كتابةً.

وبيده اليسرى، أخذ ورقة وتناول ريشته فغمسها في دواة كبيرة مربَّعة موضوعة فوق مكتبه.

كانت نيقادا تراقبه والابتسامة تعلو ثغرها. ثم فجأةً، وبحركة من اليد نفسها التي تُمسك بالريشة، ضرب تايرون الدواة بقوّة، فقذفها مباشرةً باتجاه الشّابة.

وكما تفعل كل امرأة كردَّة فعل طبيعية، تراجعت غريزيّاً لتحول دون تبقّع ثوبها بالحبر. وبسرعة فائقة يتحلّى بها الرياضي المتمرّس، قفز تايرون ستروم فوق مكتبه وأمسك نيقادا بذراعها ثم دفعها إلى الوراء.

أطلقت صرخة غضب عارم. ولكنْ، قبل أن يخرج الصوت من فمها، وقبل أن تصلي مسدّسها، كان قد خطف سلاحها ووضعه في جيبه.

نظرت إليه، غضبى، وبينهما، على الأرض، بقعة من الحبر.

ثمّ، كما لو أن هذا العمل جرّدها من كامل سيطرتها على نفسها، ارتمت على تايرون تسبقها أظافرها، استعداداً لخدشه في وجهه.

أبعدها عنه بيد وصفعها باليد الأخرى.

دوّت الصفعة كرصاصة مسدّس. وأدّت لا الى إفشال هجوم نيقادا وحسب، انما أيضاً إلى إخماد غضبها. فنظرت إليه مشدوهةً، ويدها على خدِّها.

ـ لقد ضربتَني!

ـ نعم، ضربتُك، أجاب تايرون ستروم. وأنا مستعدّ لتكرار ذلك، اذا استمرَّيت في التصرّف كالبلهاء. واعلمي، يا نيقادا، أن

لا أمل لك بتاتاً في ربح معركة معي وجهاً لوجه.

راحت تنظر إليه، كأنّها مسمَّرة، ويدها لا تزال على خدِّها. ثم خرجت من الصالون راكضةً تاركةً خلفها ما يشبه النحيب.

أمضت نيقادا ما تبقّى من النهار مستلقيةً على فراشها، تفتّش عن طريقة تثأر بها من تايرون ستروم.

كانت على ثقة تامة بعملها عندما عثرت على المسدّس في حقيبتها. فقد ظنّت حقّاً أنها قادرة على إرغام تايرون ستروم على إيصالها الى أقرب مرفأ.

كان في حوزتها الكثير من المال بالإضافة الى جواهرها التي كانت تساوي وحدها ثروة لا يُستهان بها. وأينما كانوا سينُزلونها، فقد كانت متأكّدة من العثور على طريق العودة الى اوروبا وحتى إلى أميركا.

إلاّ أن تايرون ستروم هزمها.

وهي رغم كرهها له، لم يكن باستطاعتها التغاضي عن فكرة بدأت تولد في داخلها: قلّة من الرجال تملك قوّته ورشاقته.

ـ أنا أكرهه! قالت بصوت مرتفع. لن يعاملني هكذا أبداً! افتله ولا أدعه يتغلّب عليّ.

كان قول ذلك سهلاً وتحقيقه مستحيلاً من دون سلاح. إن المسدّس الصغير الذي كانت تحمله معها دائماً في رحلاتها أمنحها شعوراً بالأمان، صار الآن بحوزة تايرون ستروم، ولم تكن تملك شيئاً آخر تهدِّده به.

هل تقفز من المركب بهدف إرباكه ليس إلاّ؟ لكنّها رأت

منزعجةً أنه سيجد في هذا العمل وسيلة صالحة للتخلّص منها وأنه قد لا يُصرّ كثيراً على نجدتها.

لم تكن تعتقد حقاً انه سوف يتركها تغرق، بيد أنها وجدت فيه قساوة صارمة لم تلاحظها من قبل.

ـ سوف أهزمه! ينبغي عليّ ذلك! ردّدت طوال الليل.

ولكن، عند الصباح، تعذّر عليها البقاء في غرفتها، ذاك أنّ الجوع أضناها.

توجّهت الى المطبخ. وحسب الظاهر، كان الجميع قد تناول طعام الفطور كما كان رئيس الطهاة غائباً.

على الطاولة، عثرت نيفادا على بيض وبعض شرائح اللحم فطهتها بعد صعوبات جمّة.

كانت كل خبرتها في الطهي هي تلك التي اكتسبتها خلال النزهات في الهواء الطلق التي كانت تشارك فيها أحياناً. كان أصدقاؤها يجدون متعةً في طهو شرائح اللحم ومستلزماتها على نار الفحم. حتى انها كانت تتنازل وتسمح لأحد ألطف الفتيان بالاهتمام بها!

حرقت أصابعها وخُيّل إليها أن قطعة اللحم ستكون كريهة الطعم لكنّها كانت تتضوّر جوعاً بحيث أتت على كل الطعام، بالرغم من أن الجزء الأكبر من طعامها كان مؤلّفاً من خبز وزبدة.

والواقع أنّها لم تعثر على شيء من المربّى أو العسل، فتساءلت أين يُمكن أن يكون. ولمّا لم تجد أحداً تسأله عن ذلك، فقد اكتفت بما وقعت عليه.

رجعت الى غرفتها، فوجدتها تماماً كما تركتها. السرير في فوضى، والثياب التي خلعتها مساءً مبعثرة على الأرض.

وبحنق، رفست ثوبها. ثمّ انتبهت الى أنه من أجمل أثوابها فالتقطته وعلّقته في خزانة الثياب.

نظرت باشمئزاز الى حقائبها الكثيرة.

كيف يمكنها أن تهتمّ بمتاعها من دون مساعدة؟ ثمّ بعد أن أخرج الثياب التي ترغب في ارتدائها، كيف السبيل الى ترتيبها من جديد؟

جلست على فراشها. ما العمل؟ كيف يمكنها إقناع تايرون ستروم بوضع حدّ لهذا القصاص السخيف، إنْ لم يكن بالقوّة، فعلى الأقل بوسائل أخرى؟

لقد كان الأمر قصاصاً حقاً لأنّها تصرّفت بفظاظة مع ابن أخته، دافيد.

ـ خُيّل إليّ دائماً أن الرجال يتكاتفون، قالت. لكنّ هذه الطريقة فاقت حدود تصوّري.

وفكّرت في أنها لا تكره تايرون ستروم فحسب، بل دافيد أيضاً، وحتى كل الشباب الذين يشبهونه. في الواقع، كانت تكره الرجال جميعاً، وسوف تنتهز كل الفرص التي تلوح لها في المستقبل: سوف تجرح مشاعرهم وتعمل على تعذيبهم.

نعم. بيد أن قراراتها هذه لن تبدّل شيئاً في الوضع الراهن. فتايرون ستروم يتحكّم بها، وهي لا ترى أي سبيل للإفلات منه.

وبعد أن فكّرت في الأمر طويلاً، قرّرت تغيير تكتيكها، أفرغت

إحدى حقائبها حتى وجدت ثوباً رأت أنه يناسبها تماماً، وغيّرت تسريحة شعرها. ثمَّ توجّهت الى الصالون.

وكما توقّعت، وجدت تايرون في مكتبه.

ـ هل أنتَ... مشغول سألت بصوت ناعم ومتردِّد.

اذا كنتَ مشغولاً فإني... سوف أعود فيما بعد.

ـ ماذا تبغين؟ سأل بخشونة.

ـ أرغب في ... التحدّث إليك.

ـ ليس بيننا ما نناقشه.

ـ تكون غايةً... في اللطف... لو أنك تتحدّث إليّ.

أبعد أوراقه جانباً بتنهيدة غيظ.

ـ ممتاز! إذا كنتِ تحملين قنبلة ترمينها أو تخبّئين حرباً بين ثنايا ثوبك، فاخرجيهما. أنا مشغول جداً!

ـ لا... ليس معي شيء من كل هذا.

اقتربت نيڤادا من المكتب وجلست على حافة الأريكة في مواجهة تايرون ستروم.

كان شعرها الأصهب المنسّق بفن وبراعة يحيط كالهالة بوجهها القمريّ الشكل، مبرزاً عينيها الكبيرتين الخضراوين.

ـ مستر ستروم... أودّ ببساطة أن أعبّر لك... عن مدى أسفي...

وأضافت تحت نظرات تايرون ستروم الهادئة:

ـ لقد فكّرتُ فيما قلتَه لي... وبتُّ أفهم الآن... أنّني أخطأت... أخطأت تماماً... بمعاملتي دافيد بقساوة. الواقع

أنني لم آخذ تهديده بالإنتحار على محمل الجد. أنا لا أعرف الشيء الكثير عن الرجال... إذ لا أخ عندي...

خفضت عينيها، وكانت رموشها البالغة السواد تتنافر مع جسدها الأبيض. وأكملت بصوت هادىء:

ـ ... أنا آسفة... آسفة حقاً... لأنني كنت كريهة الى هذا الحدّ.

وانتظرت. فانفجر تايرون ستروم ضاحكاً

ـ رائع، كأداء مسرحي، يا نيڤادا. ومن المؤسف أنكِ غنيّة الى هذا الحد. فقد كان بإمكانك جني ثروة من التمثيل.

ـ أنا... لا أمثّل، قالت معترضةً، بيد أن صوتها راح يرتفع بالرغم منها.

ـ لا ينقصكِ سوى جمهور جيّد، قال. وأنا متأكّد من أنكِ أبكيتِ العديد من المشاهِدات. أما فيما يتعلّق بي، فأنا أرتاب كثيراً عندما أرى مذنبين يتوبون لمجرّد رؤية السّوط.

عضّت نيڤادا على شفتيها للحظة.

كان غايةً في القساوة معها. وكانت تجد صعوبة في كظم غيظها

ـ ينبغي أن تصدّقني... مستر ستروم، قالت. أنا آسفةٌ حقّاً.

ـ إذاً، أنا مسرور لمعرفة ذلك، لكنّ هذا الأمر لا يغيّر شيئاً في مشاريعي. أنا لا أزال أرغب في تحويلك الى امرأة. أتمنّى لكِ طعاماً هنيئاً، والآن، أعذريني فأمامي عمل أكمله.

نهضت نيڤادا.

ـ أرجوكَ، أوقف هذه اللعبة السّخيفة، قالت راجيةً ـ هذه

المرّة لم تكن تمثّل ـ أعِدْني الى دياري، وانا أعدك بألاّ اتّصل بداڤيد ولا بأختك... أنا لا أستطيع البقاء هنا... هكذا...

ـ ولِمَ لا؟ سأل تايرون ستروم.

ـ لأنّني لم... أعِش هكذا أبداً.

ـ في هذه الحال، عليك أن تعيشي هذه التجربة كأنها مغامرة، مغامرة قد تسلّي روايتها أصدقاءك عندما تعودين الى نيويورك.

ـ متى أعود الى بيتي؟

ـ عندما أرى أنك بُتّ مهيَّأة لذلك.

ـ كن رصيناً، توسّلت نيڤادا. لقد أخذتَ بثأرك. أنا مستعدّة للزحف مؤكّدة لك أسفي، طالبةً منك السماح على كل الإساءة التي تسبَّبت بها، بيد أني لا أستطيع البقاء هنا بمفردي معك. فلو علم أحد بذلك، لوقعت الفضيحة.

ـ لن يسمع أحد بالأمر، أكّد تايرون ستروم. لقد اتّخذتُ التدابير الضرورية بهذا الشأن. إن تشارلي وداڤيد والآخرين يظنّون أنك رجعت الى أميركا، باستثناء شقيقتي، طبعاً. وإذا كتبت السيِّدة لانغهولم. يوماً تسألك إن كان بإمكانها موافاتك، فسوف تسوّي شقيقتي المسألة. على كلّ حال، فإنّ الكثير من الناس في الجنوب الفرنسي أو في أي مكان آخر يرحِّبون باستضافتكِ.

تنهدَّت نيڤادا. كان ذلك كما لو كانت مسجونةً في زنزانة لا منفذ لها.

ـ أما فيما يخصّ الفضيحة، أضاف تايرون ستروم، فإن

أمر إخبار الناس، بعد عودتك الى حضارتك، بما حصل على ظهر هذا المركب، متعلّق بكِ وبكِ وحدك.

ـ هل تظنّ أنني سوف أرغب في ذلك؟ قالت نيڤادا، بحدّة. أنت تسخر منّي. أنت تعاملني كجانحة، وهو أمر لا أفتخر به بالتأكيد. لماذا الإستمرار على هذا المنوال؟ لقد أخذت بثأرك. ألا يكفيك هذا؟

ـ لكلّ منا ما يطمح إليه، بشكل أو بآخر، كما سبق وقلت لك، أجاب تايرون ستروم. إن طموحي في الوقت الحاضر هو تغيير نموذج فتيّ لا يُرضي البشرية في شيء. قد لا أنجح في مساعيّ. قد يكون تحقيق ذلك مستحيلاً. ولكن، على الأقل، أكون قد حاولت.

ـ أنا لست كريهةً، قالت نيڤادا بغضب. ولست سيئة وشرّيرة كما ترغب في إيهام الناس. لقد كنتُ رعناء، وأنا مستعدّة للإعتراف بذلك: ربما غرَّني إعجابُ الناس بي، موافقة! أما فيما عدا ذلك، فأنا فتاة طبيعية ومشاعري هي مشاعر الفتيات الأخريات نفسها.

ـ على العكس. فأنا أميل بالأحرى الى الإعتقاد بأنك فتاة استثنائية، قال تايرون ستروم. قلتِ لي، مثلاً، إن فكرة الحب عبر اشمئزازك.

ـ وهو رأي صحيح تماماً، أجابت نيڤادا.

ـ أية امرأة تملك مزاياك، لا تشعر بالإنجذاب الى الرجال الذين يقعون أسرى حبِّها، وبالحنان والشفقة؟ مَن لا يشتهي أن يُحِبَّ ويُحَبَّ كما هي حال الرجال والنساء منذ بدء الخليقة؟

كان صوت تايرون ستروم يهدر في الصالون ويتردَّد صداه.

ـ وما حيلتي إذا كنتُ هكذا؟

ـ هذا ما أجهد نفسي لاكتشافه، أجاب تايرون ستروم. قد يطول بي الأمر. وكلّما أسرعتِ في الإقتناع بهذه الفكرة، كلّما اختصرتِ الوقت.

إنتفضت نيفادا.

ـ انا أكرهك! أكرهك! وأنت تُثير اشمئزازي! سوف أقتلك إذا أُتيحت لي الفرصة. كان عليَّ قتلك قبل أن تأخذ مني مسدَّسي.

ـ خسارة أنكِ لم تُمعني التفكير في ذلك، قال تايرون ستروم ساخراً.

جمعت نيفادا قبضتها ففهم أنَّها ترغب رغبة جامحة في الإنقضاض عليه لتمزيق وجهه، كما حاولت من قبل.

ثمَّ، وقد تذكَّرت الصفعةَ بلا شك، إستدارت على عقبيها وانطلقت نحو الصالون، مُغلقةً الباب خلفها بعنف.

أما تايرون ستروم فعاد الى أوراقه ضاحكاً.

ن تتأرجح على ظهر بعير يشبه الى حدّ ما أن تكون على رأس الأمواج، فكّرت نيفادا.

كادت تشك في صحّة مغامرتها. فالواقع أنّها كانت تنتقل في نوع من المِحفّات(*) المربوطة على ظهر بعير. كان هذا الكرسي من القصب المجدول والملوَّن، ومغطّى بستار.

كانت هذه المحفّة مخصّصة لنساء المجتمع الصحراوي الراقي، فيما الباقيات يمشين على الأقدام، إما محجّبات بالأزرق او متدثّرات تماماً بالحَيْك على الطريقة الإسلامية.

كانت قد تعلّمت اسم هذا الرداء الأبيض الفضفاض من الكتب التي قرأتها قبل مغادرتها اليخت.

إلاّ أن هذه الكتب لم تحضّرها للإحساس الغريب الذي شعرت به لحظة مغادرة اليخت، إذ خُيِّل إليها أنّها فقدت هويتها لتصير نوعاً ما ملكاً من ممتلكات تايرون ستروم.

(*) المِحفّة: كرسيّ يُحمل عليه المسافر ويحيط الخشب بالقاعد فيه من جميع جوانبه (م).

www.rewity.com/vb

وفيما كان اليخت يمخر بمحاذاة سواحل المغرب، قرّرت أن تتخلّى عن كبريائها ورجت تايرون ستروم أن يُعطيها بعض الكتب.

إنتهى بها الأمر إلى أن ضجرت من الحَرَد في غرفتها التي بدت لها أنها تضيق وتضيق وتزداد إزعاجاً كلّما فتحت حقيبة من حقائبها، أو راحت تذرع سطح المركب، بينما يتجاهلها مضيفها وأفراد طاقمه على حدّ سواء.

أمّا رتابة تلك الأيام فكانت تقطعها فقط اللحظات التي تنشغل فيها بإعداد شيء تأكله.

كانت رؤية الأطباق الشهيّة والمقدّمة بعناية لتايرون ستروم تسبّب لها ضيقاً لا يُطاق خصوصاً حين تجد نفسها لاحقاً امام قطعٍ من الدجاج أو اللحم أو السّمك ينبغي عليها أن تُعدّها بنفسها.

«أكره إعداد الطعام»، كانت لا تفتأ تردّد.

مع ذلك، راحت تراقب رئيس الطبّاخين الصيني وهو يعمل، فوجدت بعد وقت قصير أنّ الطعام الذي تُعدّه صار ألذّ منه في تجربتها الأولى.

كانت تجد مَذلّة في الذهاب الى المطبخ لتناول الطعام. ناهيك عن ان كل شيء على متن «مولاي» كان يزعجها.

وذات صباح، بعد طعام الإفطار، وفيما كانت تتأمّل الشاطىء المشمس، وافاها تايرون ستروم على سطح المركب. فأجأها قدومه أيّما مفاجأة.

وقف تايرون ستروم قرب الدرابزين يراقب الشاطىء.

وبالرغم من قرار نيفادا بعدم المبادرة الى الحديث، إلاّ أنّ شيئاً في مظهر تايرون دفعها إلى سؤاله:

- أين نحن؟

- لقد تخطّينا أغادير. هنا تختفي جبال الأطلس الأعلى في البحر.

والواقع أن تلك القمم الجرداء والدّكناء التي تشرف على زرقة الأطلسي المتموّجة كانت تؤثّر فيها. بيد أنها لم تشأ أبداً الإقرار بذلك.

كانت الشواطىء الصخرية الهائلة التي تتحطّم عليها الأمواج تتعاقب والوديان المخضوضرة المزروعة موزاً وذرةً.

ثمّ برز خليج صغير على شكل هلال تحيط به الرمال بلون الدراقن. وفي البعيد، ظهرت سطوح منازل إحدى المدن: أغادير، قالت في سرّها.

كانت المدينة جاثمةً وسط وادٍ مخضوضر تحيط به الأشجار. وجدت نيفادا مشهدها رائعاً، متمنّيةً في قرارة نفسها لو تتحدّث إلى أحدٍ ما.

والحال أنها رفضت كسر جدار الصمت شبه التام مع تايرون ستروم. فقد كانت لا تزال تكرهه بمثل الحدّة التي كرهته بها أيام السفر الأولى. والمرّة الوحيدة التي فكّرت فيها بغير الحقد، كانت عندما استغرقت في مطالعة الكتب التي أعارها إيّاها.

كان في الصالون عدد كبير من رفوف الكتب لم تُلاحظه في بداية الأمر. أكثرها تقريباً يتعلّق بإفريقيا، وبالمغرب خصوصاً.

كانت غالبية تلك المؤلّفات باللغة الفرنسيّة، وسَرّها أن تتيح لها ثقافتها، التي كلّفت أبيها ثروة لا يُستهان بها، قراءة تلك اللغة بسهولة.

لأوّل وهلة، خُيّل إليها أن لا شيء يهمّها في تلك الكتب، ولكنْ، بعد أن شرعت في قراءة تاريخ المغرب، رغبت في المزيد من الإطّلاع.

ولمّا فتنتها أخبار الأعمال الحربيّة بين القبائل المختلفة، راحت تلتهم عدّة كتب كلّ يوم، إذ كانت أيضاً قارئة سريعة. وبما أنها كانت تودّ أن تتجنّب تايرون ستروم، فقد صارت تذهب الى الصالون عندما تعرف أنّه في الطبقة العليا، او يمارس الرياضة على سطح المركب.

لم يكن يمشي بكثرة فحسب، بل كان يقوم أيضاً بالكثير من التمارين الرياضية التي تساعده على الاحتفاظ بلياقته وخفّته.

لم تكن قد نسيت بعدُ الطريقة التي خطف بها منها مسدّسها في حين حسبته تحت سيطرتها. وكان خدّها يُحرقها كلّما فكّرت في ذلك. ساد صمت طويل بعد أن أخبرها تايرون ستروم أنهم تجاوزوا أغادير. ثمّ، إذْ عجزت عن ضبط فضولها، سألت نيفادا:

ـ إلى أين نتوجّه؟

ـ جئتُ بالضبط لأحدّثكِ في هذا الموضوع.

إتّكأ، وهو يتكلّم، على الدرابزين، ونظره نحو الشاطىء، فحدجته نيفادا بنظراتها، دون أن تدير رأسها. كان بحق

متميّزاً للغاية. لكنّها فهمت في الوقت نفسه أنّ لديه نبأ جديداً مزعجاً يُخبرها إيّاه.

ـ لن نلبث أن نغادر اليخت. ثمّ، سوف نسلك منطقة قلّما يمرّ فيها أوروبيّون، هذا إذا مرّ بعضهم؛ ولهذا السبب، يجدر بكِ أن تلبسي كما تلبس نساء البربر، وأن تضعي اللّثام.

كانت نيفادا قد علمت من خلال قراءاتها أن اللّثام إنّما هو الحجاب الذي تضعه النساء المسلمات.

ـ أرفض ذلك، أجابت بعجلة.

في الحقيقة، إن استكشاف هذه المنطقة المكتشفة حديثاً كان يثير اهتمامها غير أنّها لم تشأ أن تبدي أيّ اهتمام بهذا العرض، ولهذا عزمت على مقاومته بما أوتيَت من قوّة.

ـ لقد سبق وفسّرت لكِ انه من الجنون وربما من الخطر أن نذهب حيث اصطحبكِ اذا لم نتقيّد بعادات البلد، قال تايرون ستروم بهدوء، كما لو كان يتحدّث الى طفل.

ـ لمّا كنتُ لا أرغب في الذهاب الى أيّ مكان برفقتكَ، مستر ستروم، فسوف أرتدي ما يحلو لي. وإن لم يُعجبكَ ذلك، فإنّ العلاج الوحيد يكمن في ارجاعي الى اوروبا والكفّ عن التصرّف كالبربريّ.

ـ لو كنتُ بربريّاً، أجاب تايرون ستروم، لكان اعتراضكِ وشكواكِ من المعاملة التي لقيتها على مركبي يختلفان تماماً عمّا هما عليه.

نظرت اليه لحظةً، جاحظة العينين. ثمّ، أمام تعبير وجهه وبسمة الهزء على شفتيه، أشاحت بوجهها، مدركةً الصدمة التي

دوّت في قلبها: هي الخشية شعرت بها في تلك اللحظة، لا شكّ في ذلك!

- إذهبي وارتدي ثيابك. سوف تجدينها في غرفتك. إنه أمر فنفّذيه.

وإذ رفضت أن تُذِلَّ كبرياءها، ورغبةً منها في فرض نفسها، مع ما في ذلك من صعوبة، قالت نيقادا وهي ترفع رأسها:

- وإذا رفضت؟

- عندها تعرفين أنّ بمقدوري أن أكون أيضاً مُلبسةً ثياب قديرة! أجاب تايرون ستروم بهدوء متوقفاً عند كل كلمة بأسلوب ساخر. والحق يُقال إنّ لي خبرة طويلة في هذا المضمار.

لم يكن ثمة شك في التلميحات التي تختبىء خلف هذه الكلمات. ودبّ الإحمرار في وجنتي الفتاة فنزلت الى غرفتها، ترتجف غضباً.

وهناك، استولى عليها الذهول: حقائبها كلها اختفت. لم يبق منها سوى سلّة صغيرة من القصب بدائية الصنع، عثرت فيها على أحد ثياب النوم خاصتها بالإضافة الى فرشاة عاديّة ومشط لا يخصّانها.

كذلك، استُبدِلت أدوات زينتها ومكمِّلاتها الذهبيّة بمجموعة من القوارير الدقيقة والعُلب الصغيرة التي تحتوي على أدوات تجميل محليّة.

وعثرت بينها على الكحل الذي تستعمله النساء العربيّات

لتخطيط عيونهنّ؛ والحنّة، لتخضيب الكفّ وباطن القدم، وكذلك على دهون ملوّنة للشفاه.

نظرت الى كلّ هذا بدهشة بالغة، ثم حانت منها التفاتة فرأت على فراشها قفطاناً أبيض مطرّزاً بالذهب بدّقة، ولثاماً ذهبياً الذي ترخيه النساء على وجوههنّ، وأخيراً حَيْكاً فضفاضاً بحيث يختفي نيقادا تماماً بين ثناياه فيستحيل اكتشاف هويتها.

ورأت أيضاً على الفراش بعض الحلى الذهبيَّة: عقود، أقراط طويلة، أساور وما خُيِّل إليها أنه تاج، وقد كان عبارة عن صفيحة عريضة مشغولة بدقة يتدلّى منها حجر فيروز مرصّع بحبيبات من الألماس.

اختفت حلاها الخاصة ومالها الخاص. وشعرت للحظة برغبة في الإنقضاض نحو سطح السفينة واتّهام تايرون ستروم بالسرقة وبأشياء كثيرة أخرى.

ثمّ فكّرت في أنه سيكتفي بتجاهل اعتراضاتها.

زد على ذلك أنها أحسّت منزعجةً بأنه لم يكن يمزح عندما هدّدها بأن يجرّدها من ثيابها بنفسه في حال رفضت الإنصياع لأوامره.

- يفعل هذا، بي أنا! صرخت نيقادا بصوتٍ عال.

مع ذلك، وبالرغم من خوفها الذي رفضت الإعتراف به، خلعت ثيابها على مهل وارتدت القفطان.

لم تكن تعرف تماماً ماذا تفعل بشعرها؛ فمن السخف بمكان تسريحه كما درجت عليه. وبكل بساطة، سحبت الدبابيس التي تُثبته وتركته مرخيّاً على كتفيها.

نظرت في المرآة، فلم يَفُتْها أن جمال شعرها الناريّ المنسدل حتى خصرها يبرز بفضل القفطان الأبيض الذهبي.

ولكنْ، ما نفع أن تكون فاتنةً ـ ما لبثت أن تساءلت بأنين ـ في عينَيْ رجل يكرهها بقدر ما تكرهه!

بيد أن الوقت كان يمرّ. أخذت التاج في نهاية الأمر ووضعته بحيث تتدلّى حبة الفيروز الى وسط جبهتها. ثمّ حملت اللّثام خائرة العزيمة.

كانت تشعر بوضوح أن هذا الحجاب يعني استسلامها الكامل أمام إرادة تايرون ستروم وتأثيره. وفجأةً، قرع أحدهم الباب فانقطع حبل تفكيرها.

دخل تايرون ستروم الغرفة دون انتظار الجواب

ـ هل أنتِ جاهزة؟

ـ لا اعرف كيف أضع هذا... أجابت وهي تمدّ له اللثام.

أخذه منها وهو ينظر الى شعرها الأصهب المبعثر على كتفيها.

ـ أولاً ضعي القرطين في أُذنيك.

توجّهت الى السّرير فأخذتهما ووضعتهما في أُذنيها. ولمّا كانت تمتلك أقراطاً ثمينة للغاية ورثتها من والدتها، فقد كانت شحمة أذنيها مثقوبتين لحسن الحظ.

كان قرطا الذهب المستطيلان والمنقوشان بدقّة يتدلّيان قليلاً من أذنيها، لكنّها فكّرت في أنهما سيكونان ثقيلين جداً عند نهاية النهار.

ثم وضعت في معصميها أيضاً عدة أساور، وفي أصابعها عدداً من الخواتم.

ـ خضّبي يديكِ بالحنّة، أمر تايرون ستروم، ولوّني أظافرك.

رغبت في تحدّيه والرفض: لكنه بدا لها كبيراً وقوياً في تلك الغرفة الضيّقة بحيث رضخت له في حركة شبة آليّة.

لم يدم ذلك طويلاً. كان يقف الى جانبها صامتاً، ومع ذلك، فقد كانت الفتاة تشعر بحضوره تماماً.

وعندما انتهت، كان لون يديها غريباً للغاية. وأضاف تايرون ستروم:

ـ الآن، ضعي الكحل حول عينيكِ!

ومن جديد، أرادت نيڤادا التمرّد، إلاّ أنها فهمت عدم جدوى ذلك. كانت عيناها تبدوان، وقد كُحِّلتا بالأسود، واسعتين وبالغتي الإخضرار.

ثمّ أصلح تايرون ستروم اللّثام على أنف الفتاة. كانت يداه لا مباليتين، كما لو كانت هي أُرجوزاً أو قطعة من الخشب، فكّرت نيڤادا باستياء.

أخيراً، تناول الخَيْك من الفراش وانتظر حتى تنهض نيڤادا من الكرسيّ حيث جلست تتبرَّج، فغطّاها كلّها بتلك الغلالة الطويلة، ثمّ استدار نحو الباب.

ـ سوف ننزل الى اليابسة بعد عشر دقائق، وسيدلّكِ أحد الخدم على المكان الذي أنتظركِ فيه فتتبعيني دون أن تنبسي ببنت شفة حتى نبلغ الجِمال.

وخرج من الغرفة.

جلست نيفادا على الكرسيّ، كما لو أن رجليها عجزتا عن حملها. نظرت الى نفسها في المرآة. هل تُراها هي نفسها كتلة الثياب الصغيرة هذه، المثقوبة في مكانين لتتمكّن العينان من الرؤية؟

كانت تشعر شعوراً رهيباً بأنها تترك خلفها نيفادا فان أردِن، في ضياع تام، وبأنها لن ترجع أبداً الى العالم الذي عرفته سابقاً.

ثم قالت في نفسها إنها تهذي وإن ما تُقبل عليه ربَّما يكون لعدم وجود خيار آخر، مغامرةً قد يكون من المسلّي أن ترويها يوماً ما أو حتى أن تكتبها في مذكّراتها.

وما لبث أن حضر خادم لاصطحابها. حمل السلّة وتراجع نيفادا تتقدّمه، فمشت بإباء، وقد قرَّ قرارها على عدم إظهار خوفها.

والواقع أنها فوجئت بعض الشيء حين شاهدته. كانت نسيت انه لمّا كانت قد ارتدت الزيّ المحلّي، فعليه هو أيضاً أن يحذو حذوها.

كان يرتدي الأبيض ولا شيء إلاّ الأبيض. يلبس ثوباً فضفاضاً كالذي يلبسه المشايخ، وسرواله حتى أسفل الساق تضمّه جزمتان من الجلد.

كانت عمامة بيضاء تغطّي رأسه، شأن كبار زعماء البربر، وعلى وسطه الأيسر، علّق برباط ذهبي خنجراً مغربياً في غمد مزيَّن بالحجارة الكريمة.

لو لم تكن تكرهه بمثل هذا العنف، لأقرَّت نيفادا بكل طيبة

خاطر بأن الثوب الفضفاض كان يجعل من تايرون ستروم أكثر ضخامة ومهابةً مما هو عليه في اللباس الأوروبي.

كان يبدو بسهولة، بلونه البرونزي وسماته الدقيقة، وكأنَّه يتحدَّر من إحدى القبائل القديمة التي زخر بها الجنوب المغربي.

لم يوجِّه إليها الحديث عندما ظهرت. بل استدار بكل بساطة ونزل العبَّارة الى الرصيف الصغير حيث رسى اليخت.

لم يكن المرفأ مرفأ شرعياً. فقد كانت بعض البيوت النادرة تمتدّ بعيداً من الرصيف، بيوت ضيِّقة كلها وفي حالة مزرية، مهيَّأة بالطوب الذي اكتسب صلابته من الشَّمس.

على ان نيفادا عندما وطأت الأرض، لم تركِّز نظرها على تلك الأبنية البدائيّة ولا حتى على ضواحيها القاحلة. فهي لم ترَ أولاً سوى الجِمال والحمير، تنتظر فيما يُشبه القافلة.

كانت الجِمال باركة، تُدير عنقها الأفعواني الطويل ذات اليمين وذات اليسار، ويصدر عنها في الوقت نفسه صوت غريب، شيءٌ كمثل الزمجرة المكتومة أو الغليان العجيب.

وحيّا تايرون ستروم رجالٌ يلبسون أثواباً من القطن الأزرق الفاتح وعمامات سوداء.

كانوا ضخاماً، رشيقي الجسم، أقوياء، ذوي شعر طويل أسود وناعم، وهم كلّهم سود العيون، صغار الأنوف. ولمحت نيفادا أيديهم الناعمة بغرابة.

افترضت أنهم «الرجال الزرق»، أولئك البدو المشهورون في

صحراء الجنوب المغربي، الذين يتحدّرون من أصل عربي وبربري.

لقد اكتسبوا لقبهم من ثيابهم المصبوغة بالأزرق. والواقع أن لون ثيابهم لم يكن ثابتاً على الدوام، فكانت أجسامهم ووجوههم تحمل أحياناً آثار ذلك اللون.

وبالرغم من أنها قرّرت مقابلة كل ما يفعله تايرون ستروم بعدم الإكتراث، إنْ لم يكن بالعدائية، فإن نيفادا لم تستطع منع نفسها من الإهتمام بالرجال الزرق وجمالهم. كانت أسرجة الحيوانات مزيّنة بشرّابات ومزيج من العنبر، والبلّوط والحجارة الملوّنة، التي قد تكون قطعاً من البورسلين، لكنّ نيفادا لم تكن متأكّدة من ذلك.

ولم تسنح لها فرصة كبيرة لمراقبة ما حولها. إذ لم يلبث تايرون ستروم أن أشار بيده الى أحد الجِمال وقد وُضع محملٌ على ظهره: كان الحيوان مطيّة نيفادا للسفر.

ساعدها أحد الرجال الزرق في اعتلاء الجمل، شائحةً بنظرها رغم أن وجهها كان مستوراً، باستثناء العينين.

وتمسّكت نيفادا بقوّة بمرفقي كرسيّها الغريب. ثمّ نهض الحيوان ببطء شديد، وتحرّك الجميع فيما يُشبه الموكب الطويل.

كان تايرون ستروم يتقدّم الجميع على ظهر حصان؛ يتبعه رجال يمتطون الحمير أو يسوقون الجمال المحمّلة متاعاً ورزماً.

كانت نيفادا تتعذّب كثيراً لعدم معرفتها الى أين يتّجهون

وكانت ساعتئذٍ نادمةً لأنها لم تستجوب تايرون ستروم بجدية أكثر عندما أعلمها بقرار مغادرتهما اليخت.

كان من البديهي أنهم بلغوا الصحراء، ولكنْ، أين الرمال؟ فالأرض مسطّحة وصخريّة، وعلى امتداد النظر، كانت تترامى الحصى والأرض القاحلة المجدبة.

بيد ان هذه المنطقة لم تكن مجرّدة من الجَمال. فلون الأرض كان يتحوّل بغرابة من الرماديّ الكامد إلى البرتقالي ومن الأسمر النحاسي الى الأمغر الأنقى. وكانت نيفادا تشعر بحدّة بالمسافة اللامحدودة وبقبّة السماء الهائلة فوقها.

ساروا هكذا مدّة ساعتين تقريباً دون أن يتغيّر المنظر الصحراوي كثيراً. وأحياناً، كان يرتفع بناء في البعيد، فتعرف نيفادا أنه قَصَبة(*).

كانت كلها صغيرة وغير مهمّة. وكان لونها يختلف ايضاً، إذ كانت مبنيّةً من المادة نفسها التي تتكوّن منها الأرض حيث أنشئت.

لفتت نظرها إحدى هذه الأبنية. كان للونها سمار القشدة بالقهوة الممزوجة بالحليب، تُحيط بها بعض أشجار النخيل والأشجار المثمرة.

وبدا واضحاً أنّ تايرون ستروم لا يرغب في التوقّف. فتابعت القافلة سيرها، ببطء، ومثابرة. وكانت نيفادا تتمايل على إيقاع خطى جَمَلها، وقد سرّها جداً أنها لم تُصَب بعد بدوار البحر.

(١) قلعة يُقيم فيها امير او زعيم (م).

وبغتةً، دونما سابق إنذار، رفع تايرون ستروم يده فتوقّفت القافلة. فوجئت نيفادا بذلك إذ أنّ المنظر كان هو هو ولم يكن ثمة ما يشير الى أنّهم وصولوا الى مكانٍ ما.

وإذ استدار تايرون ستروم بحصانه، تخطّى رتل الجمال والحمير وبلغ نيفادا .

وباللغة العربيّة، أصدر أمراً وجيزاً؛ فقال الجمّال بضع كلمات فخرَّ الجمل على ركبتيه بهدوء، مُصدراً زمجرةً مخنوقة.

نظرت نيفادا الى تايرون ستروم، متسائلةً.

ـ ترجّلي، قال آمراً.

ومن دون أن تفهم السبب، وضعت نيفادا رجليها على الأرض، بمساعدة الجمّال، مسرورةً لأنها سوف تترك المحفّة بعض الوقت.

كانت تحتذي بابوجاً موشّى بالذهب. كان خفيفاً للغاية فشعرت نيفادا بقساوة الحجارة تصطدم بباطن قدميها.

ولمّا كانت تتقدّم بحذر، راجيةً ألاّ تسير طويلاً، فقد قفز تايرون ستروم عن صهوة جواده وأقبل نحوها.

ـ سوف أُريكِ شيئاً.

حدّقت به بدهشة. فحسب الظاهر، لم يكن يحيط بهم سوى الفراغ.

مع ذلك، قادها الى جهة بعيدة قليلاً عن القافلة. وما لبثت أن رأت كومةً لم تتبيّنها على الفور. إقترب منها، بينما نيفادا لا تفكّر سوى برجليها اللتين يزعجانها. وفجأةً، رأت عظاماً، ثمّ جمجمةً.

توقّف تايرون ستروم

ـ خُيِّل إليكِ أن رؤية ميتٍ أمر مثير للاهتمام، قال. هذه واحدة أحدهم. إغتاله بعضهم، ووفق العادة المغربيّة، لا تُوارى الضحيّة الثّرى قبل أن يُثأر لها من القاتل.

وأطلقت نيفادا صرخة مكتومة. فقد رأت الهيكل العظمي بكامله، في المكان نفسه الذي سقط فيه الرجل. كانت النّسور قد أكلت اللحم، فبدت أسنان الجثّة المجرّدة مكشّرةً في الجمجمة الفارغة الحدقات.

كانت الأصابع العارية من اللحم ممدّدةً على طول ما كان في السابق جسماً بشريّاً. فلم يبقَ من الجلاّبيّة والعمامة سوى بعض المِزَق، في حين أحرقت الشمس كلّ شيء وأتت النسور على ما تبقّى.

كاد نَفَسها أن ينقطع، وأرادت أن تعود أدراجها بيد أن تايرون ستروم أمسك بمعصمها بشدّة.

ـ أريدكِ أن تنظري الى هذا الرجل، قال بصوتٍ قاسٍ ومزدر. فكّري فيه كما كان، شاباً، شجاعاً، متفائلاً، طموحاً ربّما، ومغرماً على الأرجح.

ودفع نيفادا بحيث تكون أقرب الى الجثة.

ـ لقد مات اليوم، فانظري الى ما تبقّى منه!

ـ دعني... أذهب!

وحاولت التخلّص من قبضته إلاّ أنها سرعان ما أدركت ضعفها.

ـ تجدين فكرة الموت مدعاةً للمزاح، أضاف تايرون ستروم.

إنَّ الموت، في رأيي، لحُطامٌ تعيس متى أقبل مبكراً جداً. إنه لمن العبث أن يموت شاب بسبب جشع أحدهم أو قساوة امرأة.

وأغمضت نيفادا عينيها.

لم تتحمَّل رؤية الهيكل العظمي. أكثر من ذلك، فقد كان اتّهام تايرون ستروم أفظع من تلك العظام العارية من اللحم ومن تينك الحدقتين الفارغتين اللتين سبق لهما أن نظرا الى الحياة بفضول.

وفجأة، شعرت بأنه سيُغمى عليها. وما من شك في أنها ترنَّحت قليلاً، بحيث فهم تايرون ستروم ما يختلج في داخلها.

ترك معصمها. فانطلقت نيفادا، خائرة القوى، نحو الجمال تتعثَّر كمن فقد نظره.

وعلى الأرجح، ساعدها أحدهم في الصعود إلى محفَّتها. ثم، عندما انطلقت القافلة من جديد، وعلى رأسها تايرون ستروم، غطَّت نيفادا وجهها بيديها.

هل أرادت حقاً الهزء بالموت؟

هل أرادت حقاً دفع داقيد إلى الإنتحار؟

كان كلُّ ذلك يبدو بعيداً جداً! ومع ذلك.

لو أنّه مات، لما تمكَّنت أبداً من مسامحة نفسها... ولا من نسيان الأمر. لقد باتت الآن متأكِّدة من ذلك.

وسارت القافلة ساعةً أخرى، ثمَّ توقَّفت من جديد قرب غابة صغيرة من البلح.

ترجَّلت نيفادا. كانوا في واحة، فَسُرَّت الشَّابة، بعد تلك الشمس الحارقة، بأن تنعم بظلال شجر البلح المنعشة الرقيقة.

كان الحجاب الذي يغطّي وجهها يسبِّب لها حرارة بالغة وقد تمنَّت إماطته فمنعتها من ذلك الخشيةُ من ردّة فعل تايرون ستروم.

أخذ أحد الجمّالة عن ظهر جمله غطاءً فاقع الألوان ففرشه في الجهة الأخرى من الواحة. واتّجه تايرون ستروم نحوه ففهمت نيفادا أنه سيمكث هناك.

وانتظرت، لا تعرف ماذا تفعل. ثمّ رأت تايرون ستروم يستدير ويُقبل نحوها.

هرعت لمقابلته، أسرع ممَّا لو كانت عطشى.

على الأقل، فكَّرت في نفسها، لن يُطلَب منها أن تحضِّر طعامها في وسط هذه الصحراء.

جلس تايرون ستروم على الغطاء وعقد رجليه تحته، على الطريقة الشرقية. وحاولت نيفادا تقليده، إلاّ أنَّ قفطانها كان ضيِّقاً للغاية؛ فلم تتمكن سوى من الركوع ثم الجلوس على عقبيها.

وجيء لهما بالطعام كما أحضر لهما خادم قربة من جلد الماعز فيها ماء... ملأ لهما قدحيهما. وودَّت نيفادا لو تشرب في الحال، لكنّها تصوَّرت أنه من غير اللائق حتماً إماطة لثامها في وجود الخدم، فانتظرت.

أخيراً، إبتعد الرجال المولجون بخدمتهما. وبالرغم من جلوسهم في الجهة الأخرى من الواحة، فقد أدار الجمّالة والخدم الآخرون ظهورهم لهما، احتراماً منهم لحميميَّة جلسة سيِّدهم.

- بإمكانكِ أن تشربي الآن، قال تايرون ستروم

كان طعم الماء على شيء من الملوحة والمرارة، بيد أنّ نيڤادا كانت مستعدّة لشرب أي سائل كان.

- ... هل تشعرين بتحسّن؟ سأل تايرون ستروم.

كانت المرّةَ الأولى التي يبدي فيها اهتماماً بها.

وفكّرت في أنه لا يلمّح فقط إلى ردّة فعلها امام منظر الجثّة، فهو على الأرجح، توقّع أن تمرض من طريقة السفر هذه.

- حالي على ما يُرام. أين ترانا ذاهبون؟

- سوف نمضي الليل في قصبة أحد أهم مشايخ الجنوب المغربي. قد لا يكون الأمر مريحاً جداً بالنسبة إليكِ؛ إذ عليكِ الإلتحاق بجناح النساء

نظرت نيڤادا إليه مكوِّرة العينين.

- تعني... الحريم؟

- الحريم في المغرب ليس هو هو الحريم في تركيا، أجاب تايرون ستروم. ثمّ اني لا أعتقد أنك تدركين الفرق بينهما.

ولزمت نيڤادا الصمت.

كانت تشعر بالخوف يتنامى في نفسها. وكانت تقلقها فكرة الذهاب الى مكان غريب ومجهول حيث لا أهمية لها إلاّ بمقدار امتلاك تايرون ستروم لها.

وبدا أنّه فطن الى خشيتها إذ قال:

- لن نمكث هنا سوى ليلة واحدة. من الضروري بالنسبة إليَّ مقابلة الشيخ حسن الزّغلي، زعيم هذه القصبة حيث نذهب، وكذلك مقابلة مشايخ وزعماء آخرين في المناطق المجاورة.

- ولماذا ترغب في مقابلتهم؟

تساءلت إذا كان سيعطيها جواباً صحيحاً أو أنّ لهذه الزيارة علاقة ما بمأثره السريَّة. وفوجئت به يقول:

- أنا في صدد تأليف كتاب.

- كتاب!

ومن دون أن تدري لماذا، كان جوابه آخر شيء قد يخطر في بالها.

- يُدهشكِ الأمر؟ لطالما كان المغرب صقعاً حافلاً بالأسرار. إنّنا نعرف القليل القليل عنه ونعرف أقل بكثير عن الشعب الذي يسكنه.

كان نظر نيڤادا مسمَّراً في نظر تايرون ستروم.

كانت مهتَمّةً بالرغم منها، لا بل مفتونةً، وكانت تخشى أن يتوقّف عن الكلام قبل أن يخبرها ما تودّ معرفته.

- إن ستّاً وثمانين بالمئة من الشعب المغربي هم بربر أو عرب، قال تايرون ستروم شارحاً، ويشكّل البربر النواة الأعرق قِدماً، النافذة والغامضة، التي سكنت افريقيا الشماليَّة.

وابتسم للرومنسيّة في كلامه قبل أن يضيف:

- إنهم متوسّطيّون. وهم ليسوا من الزنوج ولا من السّاميّين. الله وحده يعرف من أين أتوا.

- وتؤلّف كتاباً عنهم؟

- أجد صعوبة في جمع كل المواد التي أحتاجها لتأليف هذا الكتاب. إنهم يعيشون في إفريقيا الشمالية، خصوصاً في الجبال، منذ فجر التاريخ.

كان اليونان يسمّونهم البدو الرحّل. وما من أحد يعرف أصل كلمة «بربر».

- أوَ تُحبّهم؟

- إنهم شعب رائع، أجاب تايرون ستروم. لم تُفسدهم الحضارة أبداً. واغرق في الضحك.

- هل ثمّة مكان في العالم يُعتبر فيه الرقّ شيئاً عادياً، ويكون المقيمون فيه مستعدّين للعيش بقوة السّيف والخنجر، بينما النساء طاهرات وطيّعات؟

كان في النعتين الأخيرين تلميح فهمته نيڤادا على أنه استهزاء، لكنها، وللمرة الأولى، لم تُعره اهتماماً.

- أخبرني أكثر من ذلك، قالت راجيةً.

- سوف ترين، إنّ هذا العالم حريٌّ بأن يُدرس ويُستكشف، أجابها. إلاّ أني أنصحك، في الوقت الحاضر، أن تأكلي بسرعة لرغبتي في بلوغ مقصدي في أسرع وقت ممكن.

ولمّا كانت نيڤادا جائعة للغاية، فقد أطاعته دون معارضة، وهكذا أنهى الإثنان طعامهما بصمت.

خُيّل إليها أنه آخر طعام اوروبي تتناوله وتساءلت ما الذي ينتظرها.

وما إن انتهيا من تناول الطعام حتّى أكملا طريقهما. كانت المناظر تتغيّر؛ والأرض تصير غزيرة الحصى. وفجأةً، رأت نيڤادا أمامها ما يشبه المدينة الحصينة الهائلة.

تأمّلتها بدهشة. فقد كانت بالواقع كتلة ضخمةً تحيق بها الأسوار المتفاوتة الارتفاع والسُّماكة.

كانت المدينة ترتفع فوق منحدر خفيف وكانت مبانيها محفوفة بالأسوار المسنّنة تبرز فيها هنا وهناك أبراج عظيمة.

وكلّما اقتربت القافلة، كلّما بدا المجموع أكثر ترامياً ومهابةً.

وجهدت نيڤادا بعصبيّة لتتذكّر ما حفظته عن القصبة من الكتب التي قرأتها في اليخت.

كانت قد قرأت في مكانٍ ما انّ القصبة نوع من قصور العصر الوسيط الكبيرة التي يقيم فيها زعيم القبيلة وحاشيته، وخدمه والتابعون له.

بالاضافة الى الأشخاص، كانت في القصبة حيوانات، من بقر، وعنز، وخراف، وحمير، وبغال ودجاج. لكنّ الحيوانات تمضي النهار خارجاً، إما في العمل أو في الرعي. وفي الليل، تدخل الحيوانات كلّها من الباب الكبير لتبقى تحت الحماية حتى الفجر.

ليست القصبة مكاناً للسكن فحسب، بل هي في الوقت نفسه امارة مصغّرة، مُلكيّة تنتج كلّ ما هو ضروري للحياة اليوميّة، فيما عدا الشاي، والقهوة والسكّر.

وصل تايرون ستروم أمام باب ضخم مزيّن بمسامير من النحاس. ولمّا فُتح، تهافت منه عدّة رجال يرتدون الثياب البيضاء ورحّبوا به.

ودخلت القافلة إلى حرم المدينة. فتمكّنت نيڤادا من مشاهدة سلسلة لا متناهية من الممرّات المتعرّجة اتاحت لها أحياناً رؤية ساحات وينابيع.

كانت لا تزال جاثمةً على جَمَلها. فاقتيدت الى متاهة من

الطرقات الضيِّقة تعجّ بالرجال، والأطفال والحيوانات الى ان وجدت نفسها أخيراً في ما تبيَّنته مركز القصبة، حيث يسكن الشيخ.

كان كلُّ شيء، هنا، مختلفاً.

تبعت تايرون ستروم الذي ادخلها في ما لا يمكن أن يكون إلاّ قصراً، خلف باب مزخرف بمهارة.

ونظراً الى التقشّف المُغِم الذي بدت عليه القصبة من الخارج، خالية تماماً من الشبابيك، فقد كان داخلها مثاراً للدهشة، بأرضه المرصوفة بالفسيفساء الدقيقة الصنع، وبحواجزه المزخرفة بالفنّ العربي أو بقطع الزجاج المتنوِّعة الألوان والرسوم المعقَّدة.

كانت السقوف من الخشب المحفور والمرسوم؛ كما تفصل بين بعض الغرف أعمدةٌ تعلوها تيجان محفورة. كذلك كان هناك حُجُبٌ مشبَّكة بديعة الصنع.

وكانت تغطّي الأرض سجّادات متعدّدة الألوان، هي من اختصاص الأطلس الأعلى، كما أعجبت نيقادا بالوسائد الجلدية الحمراء والخضراء والبيضاء والصفراء، المزركشة بالحرير والمصنوعة من جلود الماعز.

من السقف كانت تتدلّى فوانيس فضيّة. وكان المكان، في نظر نيقادا، مليئاً بالأسرار الشرقية الصرف التي تعجز عن وصفها.

بعد لحظات، أقبل نحوهما مسرعاً الخطى الشيخ حسن الزغلي، وهو رجل مسنّ، أبيض اللحية، يشكّ تحت حزامه

خنجراً مزيّناً بالأحجار الكريمة، فسلّم على تايرون ستروم بكل مظاهر الإحترام.

وتجاهل نيقادا التي كانت تقف خلف تايرون بقليل. ولكنْ، بعد أن تحادث هذا الأخير مع الشيخ، ذكّره بوجودها.

فرْقع الشيخ بأصابعه.

فظهر خادم دعا نيقادا الى اللحاق به.

خشيت فجأة أن تترك تايرون ستروم. ثمّ اختفت في المتاهة الشاسعة التي تبيّن أنها نصف قصر ـ نصف كوخ، قائلةً في سرّها إنه سوف يزداد احتقاراً لها لو هي أظهرت قلقها.

وهكذا، تبعت الخادم عبر مماشٍ متلوِّية بدت كأنها لا تفضي الى أي مكان.

ووصلا أخيراً الى باب مهيب، محفور ومزخرف وفق الفن المغربي. وقرع الخادم الباب.

فتحت امرأة محجَّبة الباب فشرح لها الخادم، على الأرجح، مَن هي القادمة الجديدة.

أدخلت المرأة نيقادا وأغلقت الباب. عند ذلك، شعرت الفتاة بنفسها أكثر وحدةً من أي وقت مضى.

وتحدَّثت اليها المرأة، بيد أن نيقادا لم تملك سوى هزّ رأسها. ثم اقتيدت الى ممشىً آخر في نهايته قاعة فسيحة.

كان هناك عدد كبير من النساء، غير محجَّبات، بعضهنّ يجلسن على أغطية مخطَّطة، والبعض الآخر على كنبات واطئة مغطّاة بالقطيفة الحمراء

كان بعضهنّ في عمر الشباب، لكن الكثيرات كنّ عجائز،

متغضّنات الوجوه وقد وَخَطَهنّ الشَّيب. كُنَّ جميعهنّ يتقلّدن عدداً كبيراً من الجواهر. فظنّت نيڤادا أنّهنَّ من أقارب الشيخ، وهنّ ينزلنَ دائماً في المكان المخصّص للنساء في القصبة.

خلعت إحداهن الحَيْك الذي ترتديه نيڤادا. وإذ رأت النسوة قفطانها الرائع، ذُهلنَ وأثار اهتمامهنّ.

كانت الكثيرات من النساء ترتدين قفطاناً موشّى كالذي تلبسه هي؛ وأُخريات أضفنَ إليه المنصوريَّة، وهو قفطان من القماش الرقيق تضعنه فوق الأوّل. وكانت اللواتي ترتدينه تبدين وكأنهنَّ جعلنَ عليهنّ دثاراً من الضباب الخفيف اللون.

وأجلست امرأةٌ شيباءُ الشعر نيڤادا بالقرب منها، على كنبة واطئة. ثم جاءت امرأة أُخرى، أصغر عمراً، ترتدي لباساً بسيطاً وكأنّها أمَةٌ، وقدّمت لها قدحاً من الشاي بالنعناع.

كان الشراب ساخناً ومحلًّى، لكنّه روى ظمأها أكثر مما كان فعله أي شراب آخر.

ولمّا فرغت من القدح الأول، ملأته لها المرأة من جديد فشربته نيڤادا، هذه المرّة، ببطء أكثر، وهي تنظر حولها، مدركة أن القليل من الاوروبيّات مررنَ بمثل هذه التجربة التي تعيشها: أنْ تكنَّ في الحريم!

كانت النساء تستحسنَّ جواهرها وترينها جواهرهنَّ.

وكان لبعضهنَّ عقود ثقيلة من العنبر، ولأُخريات رصائع من الذهب والفضّة مطعّمة بأحجار الجَمشَت المستخرَجة من جبال الأطلس الأعلى، وكذلك بأحجار الفيروز، والمرجان وأحجار كثيرة أُخرى لا تعرفها نيڤادا لكنّها مستخرجة أيضاً من الجوار.

كانت ترغب في الإطّلاع على أمور كثيرة، وفي طرح جملة من الأسئلة.

وقد ندمت آنذاك على أنها لم تستفد من الوقت الذي أمضته على متن اليخت لتعلُّم بعض الكلمات العربيَّة عوضاً عن التخاصم مع تايرون ستروم.

كانت النساء قد استنفدن تقريباً مجمل الإشارات التي أتقنها عندما ظهرت امرأة جديدة، تحمل طفلاً بين ذراعيها.

ـ أنتِ تتكلّمين الفرنسيَّة؟ قالت المرأة ببطء شديد، وبلكنة تجعل من فرنسيَّتها صعبة الفهم.

ـ نعم، نعم أجابت نيڤادا بحماس.

وحصل التخاطب بصعوبة، ليس فقط بسبب المفردات المحدودة جداً التي تعرفها القادمة الجديدة، بل لأنها كانت تعبّر بشكل سيءٍ يتعذّر معه فكّ معاني جملها. بيد أن المرأتين تمكّنتا من التفاهم.

وهكذا، علمت نيڤادا، كما افترضت، أن النساء الكبيرات في السنّ هنّ أمّ الشيخ، وجدّته، وأخواته وعمّاته.

ولمّا كان دين الشيخ يسمح له شرعاً بأربع زوجات، فقد كانت الفتيات الأصغر سنّاً محظيّاته.

وكانت شاحبات الوجه الذي بالكاد لوّحته السمرة؛ لطيفات القسمات، فاتنات المُحيَّا.

وكان شعرهنَّ أسود اللون، طويلاً وحريريّاً. وكانت كلّ واحدة منهنّ تشبه الملكة في مظهرها، بحيث تصوّرت نيڤادا

أنهنّ لا يمكن أن تعبرن أية منطقة من العالم دون أن تلفتن إليهنّ الأنظار.

كانت اثنتان منهنّ جميلتين بشكل يدير رؤوس الرجال في نيويورك ولندن. وكنّ ذوات عيون سوداء وسيعة، وأنوف دقيقة، وشفاه لحيمة كما كانت ثقتهنّ بالنفس عظيمة. لم يكنّ يضحكن بهزء شأن الطالبات في نيويورك؛ كما أن مظهرهنّ لم يكن يوحي بالخجل، إذ كنّ يحدِّقن بنيڤادا بوقاحة مثلما كانت تتوقّع.

وكنّ يبتسمن بسحر ولطافة. ولمّا حان موعد تناول الطعام تبدّدت مخاوف نيڤادا بالرغم من أن المحادثة لم تكن ممكنة إلاّ بواسطة المرأة التي تتكلّم الفرنسيّة بذلك القدر من الرداءة.

كانت الإماء الصغيرات تخدمنَ النساء الجالسات على الوسائد أو الأغطية. وكان الطبق الرئيسي نوعاً من الشوربا او الهريسة ويتألّف من دجاج، ولحم خروف مجفّف، وحمص، وبقدونس، وزنجبيل، وبصل وزعفران. وكان الكل مخلوطاً بأرزٍ متبّل ومعه طماطم، وخبز عربي وبيض.

شبعت نيڤادا تقريباً من قصعتين من تلك الهريسة التي تبعتها أيضاً حلوى مغربيّة تقليدية مصنوعة من العسل واللوز، لذيذة الطعم، بكل بساطة.

ثم جيء بأقداح الشاي بالنعناع المألوف. وما إن انتهين من الشرب حتى نهضت النساء قفزةً واحدة. وظهرت اللُّثُم كالسِّحر، إذ سرعان ما وضعنها على أنوفهنّ.

ونظرت نيڤادا الى المرأة التي تتكلّم الفرنسية مستفسرةً

ـ الرّقص، قالت لها موضحةً. سوف نشاهد الرقص.

ـ أين؟

كان شرح ذلك غايةً في الصعوبة؛ فاكتفت المرأة بأخذ نيڤادا من يدها وبدفعها نحو الممشى في أثر الأُخريات.

وجدت نيڤادا نفسها على مصطبة من الخشب الأبيض تحيط بفناء مكشوف.

ورأت تحتها عدداً من المشايخ يرتدون الأبيض جالسين على الوسائد، يمدّون أرجلهم على سجّادات صغيرة فاقعة اللون. وكان تايرون ستروم يجلس وسطهم، على يمين مضيفه!

كان مظهره أنوفاً ومتكبِّراً. فكّرت نيڤادا. وكان يبدو أيضاً مرتاحاً للغاية.

كانت تضيء الفناء سماء مزروعة بالنجوم ونار تسطع من موقدين منصوبين في كل جهة من الفناء، تشتعل فيها سعُفُ النخيل.

وفجأة، شعرت نيڤادا بنقمة عدوانيّة عارمة تعصف بها بسبب المعاملة التي تلقاها: كيف يتجرّأ تايرون ستروم على إرغامها، هي، البيضاء البشرة، الأميركية الغنيّة التي تنتمي الى طبقة اجتماعية رفيعة، على استراق النظر إليه عبر شبيكة خشبيّة؟

ودون أن تأخذ عواقب عملها بعين الإعتبار، أماطت لثامها وركضت على طول المصطبة وهبطت الأدراج القليلة التي رأتها في إحدى الزوايا والتي تفضي الى الفناء.

لم يلزمها سوى بضع ثوانٍ لعبور المسافة الخالية التي تفصلها عن المشايخ المجتمعين.

وانتصبت أمامهم، يتوهّج شعرها الأصهب بنيران الموقدين، وتزخر عيناها بالغضب.

ـ أيها السادة! صرخت نيڤادا بصوت عالٍ.

والتفتت إليها كل الوجوه المندهشة. فأضافت نيڤادا بالفرنسيّة:

ـ لقد جيء بي الى هنا رغم إرادتي. هل يسمح أحدكم بأن يرافقني الى أقرب قنصلية بريطانية أو فرنسيّة، وسوف أكافئه بالمبلغ الذي يطلبه.

سكتت. وراح المشايخ يتفرّسون فيها؛ فخُيِّل اليها أنّهم يفهمون ما تقول. فأضافت:

ـ أنا غنيّة... غنيّة جداً... ساعدوني... أرجوكم، ساعدوني!

وانطفأ صوتها ببطء، بعد أن دوّى في أرجاء الفناء، وانتظرت نيڤادا.

هنا، أدار الشيخ حسن رأسه وأسرّ ببضع كلمات الى المغربيّ الجالس بالقرب منه. وتطاول شيخ آخر ملتح يجلس عن يسار تايرون ستروم ليُتمتم في أذنه بضع كلمات أيضاً.

كان نظر نيڤادا يتنقّل من شيخ الى آخر. واعتقدت أن في الجمع أحداً قد يهبّ لنجدتها.

عندئذٍ، تحدّث إليها تايرون ستروم بالانكليزيّة قائلاً.

ـ لم يفهمك أحد، قال بخشونة. إنهم لا يعرفون سوى لغة البربر. على أنّ جاري قد قدّم إليّ جَمَلاً وأربع نعاج ثمناً لك، وهو يقول إنه يحبّ النساء المحمومات لأنه مولع بضربهنّ لحملهنّ على الاستكانة.

وشعرت نيڤادا بصدمة في قلبها، غير أن نظرها جابه نظر تايرون ستروم.

ـ هل عليّ القبول بعرضه؟ سألها. إنه سعر جيّد لامرأة في هذه المنطقة من العالم.

ـ أواه! كيف تجرؤ على ذلك!

وللحظة، نسيت نيڤادا المشايخ، ونسيت أين هي. لم تعد ترى سوى تايرون ستروم. لم تعد تشعر سوى بمعركتها في مواجهته.

ـ لكِ وحدك القرار، قال بإصرار. أما أنا، فسيّان عندي.

ضاق نَفَسُها. وشعرت شعوراً رهيباً بأنه قد يُقدم حقاً على إعطائها للشيخ. وفي ذلك هلاكها بحق.

مع ذلك، استمرّت تحدّق به بكبرياء، وعيناها تتّقدان غضباً. ثم أُجبرت على الرضوخ للأمر. فاستدارت على عقبيها وهربت من الفناء تصرخ يأساً.

وفيما كانت تصعد الدرجة الأخيرة التي توصلها الى المصطبة، تناهت إليها ضحكات المشايخ.

وانضمّت الى النساء اللواتي كنّ ينظرن اليها بهلع. ثمّ، إفراطاً منهنّ في التهذيب وحتى لا يُشعِرنها بالإنزعاج، ركّزنَ كل ما يجري في الأسفل.

ارتفعت أصوات الموسيقى ولاحظت نيڤادا أنّ النساء غيّرن أمكنتهنّ وتجمّعن فوق المشايخ.

وفي الجهة المقابلة من الفناء، جلس نحو عشرين موسيقيّاً، يقرعون الطبول والطبلات، أو ينفخون في الشّبابات.

كانت الموسيقي مضبوطة الإيقاع تماماً. وما لبثت عدّة راقصات أن ظهرن في وسط الفناء.

كنّ يلبسنَ الموسلين والحرير ويتقلّدن الحلى بغزارة.

ـ راقصات تزنيت(*)، تمتمت المرأة التي تتكلّم الفرنسية في أذن نيفادا. إنهنّ شهيرات ومثيرات للغاية.

وتذكّرت نيفادا أنها قرأت في أحد كتب تايرون ستروم أن هذه الراقصات قادرات على بذّ كلّ منافساتهنّ في افريقيا الشمالية المشهورات بحركاتهنّ المثيرة.

كان هذا الرقص يُشبه «هزّ البطن» التركي. وكانت الفتيات شبه جامدات في حين تتلوّى أجسادهنّ وترتعش.

كانت الأضواء التي تنبعث من الموقدَيْن تلقي ظلالاً سوداء هائلة، مما أسبغ على المشهد غرابة تكاد تكون كئيبةً.

وارتفع من إحدى نواحي الفناء صوت إمتزجت نبرته الحادّة بالموسيقى.

انتهت وصلة الرقص وبقيت الراقصات في نصف دائرة. وفجأة، برزت بينهنّ امرأة حبست نيفادا أنفاسها لمجرّد رؤيتها.

كانت بوضوح فتيّةً جداً، هيفاء القوام؛ وشعرها الطويل المحلول مرصّع بالجواهر ومزيّن بالبراقع الزرقاء.

ـ سوف ترقص «الغدرة»، أسرّت المرأة التي تتكلّم الفرنسية في أذن نيفادا.

وركعت الراقصة، مُغمضة العينين. ثمّ بدأ الرقص: إنتقل

(*) مدينة في المغرب جنوبي اغادير (م).

ارتعاش المعصمين تدريجياً الى الذراعين، فالعنق، فالرأس، فالصدر، فالردفين، إلى أن تماوج الجسد بأسره.

وبدت كأنّ لهباً داخلياً يستولي عليها شيئاً فشيئاً، ويتّسع وينتشر حتى يلتهمها أخيراً.

ثم وقعت البراقع الزرق وهي ترقص فأدركت نيفادا أن الفتاة عارية الصدر. كانت، وهي تتلوّى، مستسلمة جسداً ليّناً لإيقاع الموسيقى: لقد كانت حقاً الشهوة المجسّدة.

كانت نيفادا مفتونةً، بينما الراقصة تستسلم أكثر فأكثر، وتصير حركاتها أسرع فأسرع، ويتلوّى ساعداها كالافعوان، وتفترّ شفتاها. كانت ساحرةً، مثيرةً، محمومةً.

وفجأة، انتهى الأمر. بلغت الراقصة قمّة حركتها الدائريّة، وأوشكت على الوقوع. فسكتت الطبول شيئاً فشيئاً، وحلّ صمت مطبق مكّن كل فرد من سماع دقّات قلبه.

وبدا كأنّ الصمت قد رمى السِّحر على المشاهدين. وأخيراً، دعا الشيخ حسن الزغلي بحركةٍ من يده راقصات تزنيت الى التقدّم. فهجمن إذ ذاك نحو المشايخ، واختارت كلّ منهنّ واحداً إرتمت عند قدميه، حانية الرأس، ضامةً يديها في وضع تقليدي يدلّ على الطاعة التامة!

ثم شاهدت نيفادا الراقصة وقد باتت وحيدةً. وبينما هي تفتح عينيها جاءها الشّيخ حسن فأخذ بيدها ليُنهضها ويقودها الى تايرون ستروم.

رأت نيفادا الإبتسامة على شفتيه، فركضت يخالجها شعور بالكره والاشمئزاز.

الفصل ٥

رّة جديدة، راحت نيفادا تتأرجح في محفّتها متسائلةً عمّا إذا كانت ستستطيع النوم في النهاية.

كانت تشعر بالإعياء، لأنها لم تعرف الراحة في الليلة السابقة. وهي لمّا تزل تتقلّب وتتقلّب، منزعجةً من أصوات النساء اللاّتي ينمنَ في الغرفة نفسها.

كانت ترى أمام عينيها، على الدّوام، راقصة «الغدرة» الشّابة وهي تقوم بحركاتها المتموّجة الرائعة.

لم تكن نيفادا تتصوّر يوماً أن تكون رقصةٌ بمثل هذه الإثارة، والإغراء والفتنة في آنٍ معاً.

فبعد عودتهنّ الى جناحهنّ، بقيت النساء لفترة طويلة تحت تأثير الصّدمة النفسانيّة التي سبّبتها الموسيقى والولع المَرَضي برقصة «الغدرة».

ناهيك عن أن أصغر زوجات الشيخ كانت تبكي فعزّت المرأة التي تتكلّم الفرنسيّة بكاءها الى الغيرة.

- إنها تحبّ سيّدنا، تمتمت في أذن نيفادا. وعندما تأتي الراقصات، فإنه لا يرسل في طلبها طيلة ليلتين أو ثلاث.

تعجّبت نيفادا لكون هذه الزوجة الرابعة، الرائعة الجمال والتي لم يتعدَّ عمرها الثمانية عشر ربيعاً، يمكن أن تحبّ الشيخ الى هذا الحدّ.

وبعد التفكير، رأت أنّه، في الواقع، الرجل الوحيد الذي تعرفه تلك النساء، وليس لهنّ خيار آخر.

ولمّا أوت كلّ واحدة منهنّ الى فراشها، لم تستطع نيفادا إلاّ أن تفكّر في تايرون ستروم وفي الإبتسامة التي أنعم بها على الراقصة الشّابة.

كان وجهها يبرز من الظلال بوضوح ولم تتبيّن فيه نيفادا سوى حركة الشّفتين وما بدا لها وميضاً متّقداً.

كانت والدة الشيخ قد أحلّت نيفادا في المكان الأكثر راحةً، إذ منحتها موضع الشرف على المرتبة، وهي كنبة واطئة مؤلّفة من مجموعة فرش مغطّاة بالمخمل ومرتكزة على دعائم خشبيّة.

كان ذلك المضجَع مريحاً للغاية، بيد أنّ الكرى جفاها. وفي الصباح، شعرت بالتّعب كما لم تشعر به من قبل. كنّ قد نهضنَ جميعهنّ باكراً، إذ أعلمهنّ أحد العبيد برغبة تايرون ستروم في الإنطلاق عند طلوع الشمس.

وتأثّرت نيفادا بوداع والدة الشيخ والنساء الأخريات، لما ألمسه من علامات الودّ.

ونقلت المرأة التي تتكلّم الفرنسيّة الى نيفادا تمنّيات رفيقاتها بسفر سعيد، وأملهنّ بعودتها اليهنّ يوماً ما.

ثم، بعد سلامات عدّة، تلمّست فيها الأيادي المضمومة جبهتها أولاً، فشفتيها فصدرها أخيراً، تبعت نيڤادا خادماً عبر أروقة متعرّجة حتى القاعة حيث استقبلهما الشيخ، هي وتايرون ستروم، عند وصولهما. كالعادة، تجاهل الشيخ وجودها، كما توقّعت. وعندما غادر تايرون ستروم القصر، دعاها بنظرةٍ منه الى اللحاق به. وكان في انتظارهما حصان وجَمَل. ثم لحق بهما من تبقّى من القافلة عند باب القصبة الخارجي. وتحرّكت القافلة وسط وداع خدم الشّيخ وصراخ الأطفال المنفعلين الراكضين الى جانب الرجال في الصحراء.

وما لبث الهواء البارد الخفيف الذي هبّ عند انطلاق القافلة أن هدأ مع طلوع الشمس التي ازدادت حرارتها حدّة مع كرّ الساعات.

ووصلوا الى منطقة مختلفة تماماً. ترتفع فيها أجراف هائلة من جانبي وادٍ ضيّق كثير الحصى تتلوّى فيه درب ضيّقة متعرّجة. لم يكن المكان سوى شِعابٍ جافة، ومنحدرات صوّانية ومغاور متآكلة.

وعبروا نهراً قليل العمق يسيل ماؤه شريطاً رفيعاً بين الصخور.

ثم بدأت تظهر التلال الحارقة والمجدبة حيث لا ينبت سوى لوز البربر.

كانت حركة الجمل المتواترة قد أنهكت نيڤادا، فأسبلت أجفانها وكادت تغفو عندما توقّفت القافلة فجأةً.

وإذ فتحت عينيها، رأت أنهم في معبر تحفُّ به أجراف عالية من الصوّان.

ثم رأت تايرون ستروم يعود بسرعة فائقة من مقدّمة القافلة متخطّياً سلسلة الجمال والحمير. ولم تشكّ في أنه كان قد تقدّم القافلة بكثير. واتّخذ مكاناً بالقرب منها.

أعطى أمراً وجيزاً للجمّال الذي أمر بدوره الجمل، فأطاع وبرك على مهل مُطلقاً النخير إيّاه. وتوجّه تايرون ستروم الى نيڤادا قائلاً:

- إنزلي وأسرعي!

نظرت اليه بدهشة ثمّ فكّرت في أنه قد يكون لديه شيء آخر مزعج يودّ أن يدلّها عليه، كما حدث من قبل، عندما قادها لرؤية جثة الرجل المقتول.

أرادت أن تجادل، وتعترض، لكنّه سبقها الى إعطاء الأوامر للجمّال. والواقع أنّ الرجل بادر الى نزع المِحفّة عن ظهر الجمل، ما إن وضعت رجلها أرضاً.

ووقفت نيڤادا على الدرب الكثيرة الحصى تراقبه دون أن تفهم ما يدور. وفجأةً، أمسك تايرون ستروم بمعصمها.

كان قد ترجّل هو أيضاً واقتيد حصانه جانباً.

- ماذا يحصل؟ سألت نيڤادا.

- تعالي! سوف أشرح لك الأمر فيما بعد.

دفعها الى الأمام وهو يتكلّم، واقتادها بين الصخور. كان عليها أن تسرع فتأذّت قدماها اذ كانت تنتعل بابوجاً.

تعثّرت فأطلقت صرخة صغيرة.

ترك معصمها، وفي عجلة من أمره، رفعها بين ذراعيه دون إعطاء أي تفسير.

لفرط دهشتها، كانت عاجزة عن قول أي شيء، عندما وضعها خلف جلاميد صخرية، بعد أن تسلّق هو صخرة وعرة، ثمّ جثا ليراقب القافلة في الوادي، تحتهما.

تبعت اتجاه نظره فرأت أن المحفّة التي كانت تسافر فيها لم تفكّك فحسب؛ بل عمد الجمّال الى تحطيمها، وكان في تلك اللحظة يلقي بقطعها وراء الصخور بعيداً عن الأنظار.

وعندما انتهى الرجل من ذلك، أوقف الجمل وتحرّكت القافلة من جديد، بهدوء، فيما كان ولدٌ يقود حصان تايرون ستروم وقد وُضع على ظهره بعض المتاع.

- ماذا يحدث؟ هل يذهبون دوننا؟ سألت نيفادا.

والحال أنه لم يكن بإمكانها أن تفهم معنى هذا المشهد ولا لماذا تصرّف تايرون ستروم بهذه الغرابة. وظنّت لوهلة أنه لن يجيب. بيد انه حزم أمره في النهاية.

- ثمّة خيّالة يُقبلون نحونا.

- خيّالة؟ مَن هم؟

- لا أعرف بالتحديد، الاّ اني لا أريد المخاطرة.

- لماذا؟ هل تعتقد أنهم قد يهاجموننا؟

- قد يكونوا أتباع الشّيخ الذي قدّم البارحة عرضاً بشأنك، قال بخشونة. فالمرأة البيضاء ألهوَة بحق في هذه المنطقة. حتى أنه ضاعف عرضه في وقت لاحق.

وادّت نبرة الإستخفاف في صوته الى ازدياد الشعور بالخجل في قلب نيفادا.

- أنا... أنا آسفة، تمتمت.

- وقد يكونوا ايضاً لصوصاً يبحثون عن قافلة ينهبونها، أضاف. إن عصابات المُغيرين بقصد السّلب كثيرة؛ وقد تصادف، لسوء حظّنا، واحدة منها.

وبينما كان يتكلّم، سحب مسدّسه من تحت ثوبه الأبيض.

- هل تعتقد... بأن عليك القتال؟

- إذا كان لا بدَّ منه. سوف تكون حصيلة ذلك دماً وقتلى، إلاّ انكِ سوف تجدين ذلك ممتعاً.

ونظرت نيفادا الى أسفل. كانت القافلة تعبر ممرّاً جبليّاً ضيّقاً بين حاجزين صخريّين داكنين.

- أرجوك... لا تَقُلْ هذه الكلمات من جديد، قالت مدافعةً بصوت خافت. لقد انزلتَ بي قصاصاً عنيفاً لما فعلتُه بداشيد... حتى بدون قصدٍ منّي. أنا لن أنسى أبداً.. ذلك الهيكل العظمي الذي شاهدناه البارحة.

وعلم تايرون ستروم من نبرة صوتها أنها صادقة في ما تقول. ثمّ انه أحسّ لقربه منها بالإختلاجة الخفيفة التي اجتاحت الفتاة إذ تذكّرت الحدقتين الفارغتين والأسنان المجرّدة من اللحم.

غير أنّ الوقت لم يكن للمناقشات. فالواقع انّ عدداً كبيراً من الخيّالة بانَ في البعيد، يحملون بنادق طويلة الأُستون وتطاير خلف ظهورهم برانسهم التقليدية.

وعندما صار هؤلاء في مواجهة القافلة شدّوا بعنف أعنّة جيادهم فارتدّت الى الخلف على مؤخّرتها، وفق أسلوب طوّره العرب خلال هجماتهم الشرسة ومهرجانات الفروسيّة.

ثمّ راح رئيسهم يتحدّث الى الرجل الذي يقود القافلة.

فأنصتَ تايرون ستروم بدقة. وحيال التعبير المُغم الذي ارتسم على وجه رفيقها، فقد تملّك نيفادا ذُعر لا مثيل له.

إقتربت منه دون تفكير تقريباً؛ فشعر بها ترتعش بتشنّج.

كان يُمسك المسدّس بيده اليمنى، فمرّر يده اليسرى حول كتفي نيفادا.

وبالرغم من أنها لم تعرف تماماً إذا كان الغرض من هذه الحركة حمايتها أو منعها من الإتيان بأيّة حركة قد تثير الإنتباه، فقد شعرت بتعزية غريبة.

من غير المجدي أن تحاول أن تكون امرأة مستقلة في مثل هذه الحالة، قالت في نفسها. حتى أنها رغبت في المزيد من الإلتصاق بتايرون ستروم وإخفاء وجهها في صدره كي لا تشاهد التراشق بالرصاص.

كان قلبها يخفق في صدرها متسارع الضربات. وكانت تنتظر في كلّ لحظة أن ترى رجال القافلة يقعون برصاص الخيّالة فيكون تايرون ستروم مُجبَراً على النزول.

ولكنْ لا. فقد انتهت المحادثة التي شارك فيها خيّالة عدّة. وبعد أن أطلقوا صرخة بدت في آنٍ معاً كإشارة وكتعبير عن حماس، إنحدروا بسرعة مجنونة في اتّجاه القصبة.

وشعرت نيفادا بتنهيدة الإنفراج التي صدرت عن تايرون ستروم، تنهيدة أفلتت بهدوء من شفتيه المنفرجتين. واتاحت لجسمه الإسترخاء.

- هل... ذهبوا؟ تمتمت.

- ذهبوا يبحثون عنكِ، أجاب. لقد كنتُ على حق، فالشيخ راك البارحة من دون لثام وقرّر أن تكوني من عديد حريمه.

- أنا آسفة... سامحني. لقد أدركتُ الآن مدى جنوني، قالت لاهثةً.

- لم يكن تصرّفكِ جنوناً فحسب، بل كان غايةً في الخطورة. تعالي. ينبغي علينا أن نخرج من هنا.

ساعدها على النهوض ومشى أمامها على المنحدر الصّخري. ولمّا أدرك القافلة، توجّه بالحديث إلى الرجال.

نُزعت البقجة عن ظهر حصانه الذي أحضره أحد الأولاد بين يديه. ثم قال تايرون ستروم لنيفادا:

- بما أنّ رجال الشّيخ لن يلبثوا أن يكتشفوا عدم وجودك في القصبة، فإنه ينبغي علينا نحن الأثنين أن نُسافر دون راحة. إنها مجازفة علينا ركوبها.

ولمّا نظرت إليه نيفادا مستفسِرةً، رفعها بين يديه ووضعها على صهوة جواده.

إمتطت الجواد من أحد جانبيه، كما هي العادة عند نساء تلك البلاد. قفز خلفها وأحاطها مجدداً بذراعه اليسرى في حين أمسك العنان بيده اليمنى.

ثمَّ أصدر بضع أوامر لدليل القافلة. وقدَّرت نيفادا بأنه أوصاه بالإسراع في بلوغ مقصده.

في النهاية، همزَ جواده. وبخطىً واثقة، خرج الجواد من الممرّ الضيِّق المزروع بالحجارة الغليظة والذي يؤدِّي إلى سهل صخري غير مستوية أرضه. وبعد صمتٍ طويل، سألت نيفادا:

ـ هل المكان بعيد؟

ـ نعم، المكان بعيد نوعاً ما.

ـ وهذا يعني أن رجال الشّيخ... قد يلحقون بنا عندما يتبيَّن لهم أنني لست في القصبة؟

ـ قد يحصل هذا.

ـ وماذا... بعد ذلك؟

ساد من جديد صمت طويل. وأخيراً، قال تايرون ستروم:

ـ ثمة خياران: إما أن تذهبي معهم، أو أقتلك بيدي.

لم تتمكَّن نيفادا إلاَّ من الإلتفات نحو رفيقها.

ـ أواه، لا!... لن يكون ثمّة خيار... فأنتَ تعرف تماماً أنني أفضِّل... الموت! صرختْ وهي تخفي وجهها في صدر تايرون ستروم.

ـ كنت أشكُّ في ذلك. ولكن، بقليل من الحظّ وبمساعدة الله، سوف نصل إلى طفراؤوت قبل أن يتمكَّنوا من إدراكنا. وهناك ننعم بالأمان.

ثم تمتمت نيفادا بعد صمت، وهي لا تزال ملتصقة بكتف تايرون ستروم،

ـ أنا آسفة... بكل صدق... فأنا لم أكن لأفهم أنَّ بإمكان

الشيخ أن يتوهَّم... أشياء كهذه بشأني... لم أكن أطلب... سوى النجدة.

ـ وهل ظننتِ حقاً أنهم سوف يهرعون لمساعدتك؟ سأل تايرون ستروم وفي صوته نبرة هزء.

ـ لقد قرأتُ في كتبكَ أنهم ليسوا... متحضِّرين إلى حدّ كبير، ولكنّ... لجهلي، لم أكن أعرف ما يعني هذا الأمر.

ـ ليس أنَّهم على درجة غير عالية من التحضّر، بل الواقع أن للنساء في نظرهم قيمة ضئيلة؛ إنهنَّ موجودات للترفيه عنهم فحسب. أما أن يكون عندهنَّ شعور بشأن اختيار مَن سيصير سيِّدهنّ أو إيثار أحدهم على آخر، فإن ذلك احتمال لا يأخذه أحد بعين الإعتبار.

لم تُجب نيفادا إذ قد يكون تايرون ستروم بشاطرهم وجهة النظر تلك؟ فهو لم يُعِر مشاعرها أيّ اهتمام، فكَّرت في سرّها.

مع ذلك، فقد كان الآن يخاطر بحياته وبحياة رجال آخرين لإنقاذها من عواقب غبائها. ذاك أنها كانت تعرف تماماً أنَّه في حال حصول معركة ما، فمن السَّهل جداً على الخيَّالة أن يُردوا الجمّالة قتلى؛ فضلاً عن أنّ مسدّس تايرون ستروم لن يتمكّن من حمايتهم طويلاً.

وتساءلت عمّا سيشعر به في حال أُجبر على قتلها كما وعدها. لكنّه، بدون شك، قد أقدم في السَّابق على قتل الكثيرين؛ وأن يؤثِّر فيه، على الأرجح، قتل امرأة أخرى.

كان الإضطراب قد نال من نيفادا كما لم يحصل معها من قبل، تحت تأثير كل تلك الأفكار المشوَّشة الممتزجة بالقلق.

لم تتمكّن سوى من إغماض عينيها والاستسلام بين ذراعي تايرون ستروم بينما كان الجواد يتقدّم أسرع ممّا ظنّته ممكناً على تلك الأرض الصخريّة وغير المستوية.

«أنا بمأمن في الوقت الحاضر»، قالت نيقادا في سرّها، «أنا بين ذراعيه وسوف يتولّى حمايتي... قدر المستطاع».

حاولت تقدير المسافة التي قطعاها منذ تركا القصبة. وهي قصيرة طبعاً، إذا أُخذ بعين الإعتبار بطء القافلة.

وباستطاعة الخيّالة بلوغ القصبة في ربع ساعة من الزمن، بفضل جيادهم العربية الصغيرة الجموحة. لقد شعرت نيقادا بقلبها يخفق بصخب لهذه الفكرة. بيد أنّها، بالرغم من هلعها، لم تكن قادرة حقاً على تصوّر ما تخشاه.

هل من الممكن حقاً أن تموت هي، نيقادا فان اردن، الأميركية الغنيّة المدلّلة، في هذه الصحراء الكثيرة الحصى من دون أن يدري أحد بما حصل لها؟ عندها أدركت كم سيكون موتها عديم الأهمية.

كم من الأصدقاء سوف يبكون غيابها عنهم؟ كم من الناس يحبّونها إلى حدّ ذرف دمعة واحدة عند سماع خبر موتها؟

وللمرّة الأولى في حياتها، رأت نيقادا نفسها كما هي، إذ تنفصل عن ثروتها وتتجرّد من الهالة التي يضفيها عليها جمالها.

فلو أنّها ماتت كالرجل الذي دلّها عليه تايرون ستروم البارحة، لَنَقَرتْ لها الكواسر لحمها الذي يغطّي العظام، ولأمْسَت مجرّد هيكل عظمي يصفرّ تحت الشمس!

على أن ما شعرت به وعانت منه انتقل بشكلٍ ما إلى تايرون ستروم، ذاك أنّ ذراعه شدّتها فجأةً إليه وصار صوته أكثر عذوبةً:

- عندما يُحدق الخطر بنا، علينا ألاّ نتوقّع الأسوأ أبداً. إنّ هذا لمبدأ ممتاز.

- هذا... صعب، قالت بصوت مخنوق.

- أعرف ذلك، إلاّ أن الحظّ لم يخذلني قط في الماضي وأرفض التفكير في أنه سيتخلّى عنّي اليوم.

- أمل ذلك، أنا أيضاً، تمتمت. وأنا لا أريد... أن أموت.

- الحقّ يُقال إنّني لا أرغب أنا أيضاً في الموت. فأمامي أشياء كثيرة أقوم بها.

- من جهة... كتابك الذي تريد أن تنهي تأليفه.

- تماماً! - وبدا لها أنه ابتسم فوق رأسها وهو يضيف: - دون أن نأخذ في الإعتبار بأنه في حال نجاتنا، فسيكون لهذه المغامرة مكان مميّز في مذكّراتكِ.

- أشكّ في أن يودّ أحدهم قراءة مذكّراتي يوماً ما.

- بالتأكيد، فذلك مرتبط بالمغامرات التي ستعيشينها في المستقبل.

وإذ سمعته يتكلّم بهذه الطريقة الموضوعيّة، شعرت نيقادا بالقلق يتراجع في داخلها. حتى أنها تمكّنت من استعادة صوتها الطبيعي.

- وبعد ذلك، أظنّ أن السرور سيتملّكني بأن أبقى في منزلي أشغل بالتطريز.

ـ قد تجدين من الأجدى تعلّم فن الطّبخ.

وخالت لوهلةٍ انه يهينها إلاّ أنّها سرعان ما اكتشفت أنّه ينكّدها.

ـ سوف أتلقّى بعض الدروس بدون شك... هذا إذا عدنا بعدُ إلى الحضارة.

ـ في الوقت الحاضر، ليس عندي شيء متحضّر للغاية أقدّمه لكِ. بالمقابل، فإننا نشرف على ملجأ أمين.

كان في صوته رنّةُ انتصار جعلتها ترفع رأسها. فرأت على بُعد ألف وخمسماية متر إلى الأمام هضبة من الصوّان الوردي ترتسم في السّماء وترتمي على أقدامها أشجار نخيل ضبابيّة الإخضرار.

ـ طفراؤوت! قال مهلّلاً.

وإذ نظرت إليه وهو يتكلّم، شاهدت ابتسامة على شفتيه. لقد انتصر مرّة جديدة، قالت في نفسها.

منذ ذلك الحين، بدا لها قلقها سخيفاً، وكذلك مخاوفها. كان عليها أن تعلم أن تايرون ستروم ينجح دائماً في كلّ ما يُقدم عليه.

ومع اقترابهما، شاهدت نيڤادا أشجار الزيتون واللوز تمتزج بأشجار النخيل، وتحيق بمدينة صغيرة ورديّة الأسوار والبيوت.

كان هنالك أيضاً قصبات عدّة صغيرة عرفتها من أبراجها المسنّنة، وما لبثت أن اكتشفت أن طفراؤوت تمتدّ على مدخل وادٍ في غاية الخصب والجمال.

في قلب سلسلة من الجبال الهائلة، وبعيداً عن باقي المغرب، كانت طفراؤوت كمثل ملجأ في مأمن من العالم العدائي.

كانت الهضاب الصوّانيّة العالية تحيط بالمدينة كأذرع واقية. وترتفع جوانبها الشديدة الإنحدار بضع مئات من الأمتار، جاعلةً من المدينة نوعاً من القلعة الطبيعيّة.

كان ذلك فاتناً بحيث تساءلت نيڤادا إن كانت لا تحلم فيما كانا يعبران الوادي.

وبدا أن تايرون ستروم سَبَرَ فكرتها:

ـ إن هذا الوادي يضاهي نوعاً ما بعض الأودية الغريبة بفتنتها والعجيبة بخصبها التي قُيّض لي مصادفتها في الهملايا. فهنا تجدين حضارة عمرها آلاف السِّنين، تكتنفها الأسرار، وتختلف جذرياً عن تلك التي يمكن مشاهدتها في الأجزاء الأخرى من المغرب.

ـ أخبرني المزيد، صرخت نيڤادا بحماس.

ـ فيما بعد، أما الآن فسوف نذهب إلى منزلي.

هزّ برأسه، وكان الجواد يتقدّم الهوينى في الطرقات الضيّقة. وما لبثا أن وصلا بالقرب من قصبة ورديّة اللون تحيط بها أشجار اللوز مُسبغةً عليها منظراً خياليّاً حَرِيّاً بقصور الأساطير.

حالاً، فُتحت لهما الأبواب، وما إن ظهرا حتى تهافت الخدم يرحّبون بتايرون ستروم. كانت الأوجه كلها مبتسمةً وبدا أنّ التحيّات لن تنتهي أبداً.

وتحدّث إليهم تايرون ستروم بلغتهم ثم دخل القصبة.

www.rewity.com/vb

والحقّ يُقال إنها كانت منزلاً أكثر منها قلعةً. ترجّل تايرون ستروم أمام بابٍ آخر. ثمّ حمل نيڤادا ليضعها على الأرض الورديّة.

ودخلا إلى المنزل فوجدت نيڤادا نفسها في قاعات مزخرفة بأجمل ما ابتدعه الفن المغربي.

فسيفساء، طنافس ونسائج من الكتّان الغليظ، والكل أحسن وأجمل من كلّ ما مرَّ في بالها. ناهيك عن أنّ الدواوين الضخمة المغطّاة بالوسائد الحريريّة وكذلك مراوح التهوية المعلّقة في السّقف، كانت تَعِدُ برفاهية استثنائيّة، على الطريقة الغربيّة.

دعا تايرون ستروم نيڤادا إلى الجلوس على أحد تلك الدواوين، وسرعان ما وضع أحد الخدم أمامها قدحاً من الشاي بالنعناع.

وسألت تايرون ستروم بلغة العيون فقال لها مبتسماً:

- بإمكانك نزع الحَيْك واللِّثام هنا. إفعلي كما يحلو لكِ.

فسارعت نيڤادا إلى رمي ثوبها الأبيض إلى الخلف وخلْع لثامها عن أنفها.

وسقط شعرها المحلول على كتفيها، متوهّجاً في النور الخفيف الذي يتسلّل من النوافذ المُسْدَلَة الستائر.

وفكرت في أنها تبدو مهملة المظهر بعد كلّ ما عاشَتْه، لكنّ الأمر لم يكن يهمّها في الوقت الحاضر.

تناولت قدح الشاي بالنعناع وشربته بلذّة فائقة، مكتشفة فجأةً أنها في غاية العطش، ليس فقط بسبب الرحلة الطويلة على ظهر الجواد، بل أيضاً بسبب الخوف الذي عانته.

خرج تايرون ستروم من الغرفة فنظرت حولها.

أن يكون هذا المنزل ملكاً لتايرون ستروم أمر بدا لها عجيباً، لكنها، بعد النظرة السريعة التي ألقتها على الوادي، فهمت أن شخصاً محبّاً للإنفراد والأمكنة الغريبة إنّما يشتهي السكن في طفراوُوت.

«بإمكانه العمل هنا»، قالت في سرِّها.

وعاد إليها، فسألته بعد أن علمت بقلقه على القافلة:

- هل ثمّة أخبار جديدة؟

- لقد أرسلتُ العديد من رجالي لمواكبتها إلى هنا.

- أوَ تخشى على مخطوطاتك؟

- وكيف تعرفين ذلك؟

- أين صرت في مشروعك؟

- في منتصف الطريق تقريباً. ويزعجني تماماً أن أعود إلى نقطة البداية.

- لا يسعنا غير أن نرجو عدم حصول أي حادث.

- ليس الرأي الذي تبديه رأي عدوَّة. فالأحرى بكِ أن تنمّي رؤيتي مغتاظاً من فقدان وثائق ثمينة في نظري.

- ربّما لستُ على ما أبدو من الأنانيّة، أجابت نيڤادا بسرعة وحماس قبل أن تفهم أنه يعمل على إغاظتها.

- وأين تشتغل؟ سألت أيضاً.

دلّها على طاولة لم تكن قد لاحظتها بعد، في الطرف الآخر من الغرفة.

توجّه إليها وأزاح بعض الستائر المطرَّزة بمهارة، كاشفاً

وجود نافذة خالية من الزجاج، غاية في الإتّساع، تُطلّ على الوادي.

لحقت نيڤادا بتايرون ستروم. وتأمّلت في المزروعات والأشجار المتفتّحة، والأزهار، والمنازل الورديّة اللون والهضاب المتورّدة المتلألئة، ينبثق منها بريق غريب.

وهنا وهناك، كانت ضياع صغيرة جداً تتفتّح بين صخور هائلة؛ وتختفي بيوتها تقريباً لتطابُق لونها مع لون المنظر.

ـ ما رأيك في هذا الوادي؟ قال تايرون ستروم.

ـ إنه رائع!

ـ هذا ما دار في خلدي عندما أتيتُ إلى هنا للمرّة الأولى فسرعان ما وجدتُ هذا المكان عجيباً ومدهشاً.

ـ هذا المكان شبيه بعالم الأحلام. أضافت نيڤادا.

ولمّا التزم الصمت، أكملت:

ـ أتُراه موضوع كتابك؟

ـ نعم.

ـ هل يمكن أن أساعدك في شيء؟

ـ في تأليف كتابي؟

ـ بالتأكيد لا! بل بإمكاني نسخ ما تكتبه. فلطالما سمعتُ بأنّ المؤلّفين يكتبون عدّة نصوص قبل نشر مؤلّفاتهم.

ـ إنه اقتراح جيّد، بيد أني أخشى ألاّ يسلّيك الأمر أبداً.

ـ لسوف ينتابني الملل أكثر، إذا لم أفعل شيئاً، بالرغم من أنني أشعر في الوقت الحاضر بالرغبة في الجلوس هنا أربعاً وعشرين ساعة متتالية أتأمّل المنظر.

وابتسم تايرون ستروم.

ـ أفهم أن يكون المنظر غذاءً للفكر، قال، ولكني أعتقد أنك جائعة أيضاً. سوف أدلّك على غرفتك. وقد أمرت خدمي بإعطائك ثياباً بديلة. فأرجو أن يُناسبك القفطان الذي سيأتون به. على كلّ حال، بإمكانك غداً شراء ما يحلو لكِ.

تملّكت نيڤادا الدهشة لكنّها لم تنبس ببنت شفة. بل اكتفت باللحاق به إلى غرفة فاخرة تقع في الطابق نفسه وتشرف نافذتها أيضاً على الوادي. وكما العادة في المغرب، كانت النافذة خالية من الزجاج. في المقابل، كان هناك مصراعان من الخشب يمكن إغلاقهما حين يكون الطقس بارداً.

كانت الغرفة واسعة ومريحة، وهتفت نيڤادا:

ـ أنا متأكّدة من أنّها غرفتك. ولمّا كنتُ زائرة غير مرغوب فيها، فإني لن أحرمك منها مهما يكن من أمر.

إبتسم تايرون ستروم، إلاّ أنها شعرت بأن اهتمامها بعدم إزعاجه يدهشه.

ـ أؤكّد لك أنّني أستقبل زوّاري هنا، قال. إنّ غرفتي تقع إلى جانب هذه، وأعدك، طالما أنك موجودة في حمى القصبة، بألاّ يُقدم أحد على خطفك. ولا سرقتك. قد لا تلاحظين ذلك، لكنك في حراسة جيّدة.

ونظرت إليه نيڤادا بقلق.

ـ هل تعتقد أنّ رجال الشّيخ مازالوا يبحثون عنّي؟

ـ قد لا يرغب الشّيخ نفسه في التخلّي عن المطاردة، أجاب تايرون ستروم. بيد أنّ لسكّان طفراؤوت قانونهم الخاص. إنهم

ليسوا قبيلة، بل شعب متميّز تحيط الجبالُ بتخوم أرضه.

ـ ومَن هم هؤلاء القوم، إذا كانوا لا يؤلّفون قبيلة؟

انفجر تايرون ستروم ضاحكاً.

ـ إنه سؤال يطرحه المغربيّون أنفسهم منذ قرون. فأهل طفراوُوت أقدم شعوب المغرب وأنقاهم وأرسخهم أصلاً.

وإذ قرأ الإهتمام في عيني نيڤادا، أكمل قائلاً:

ـ إنهم من البربر التجأوا إلى هذه الجبال منذ اثني عشر قرناً تقريباً هرباً من الغزاة.

قد يُظهرون الكثير من العدائيّة خارج أرضهم وهم متمسّكون بواديهم أكثر من كلّ شيء. إنّهم عاملون نشطون «يحتفظون بنفسهم لنفسهم»، كما يقول الإنكليز.

اتّجه تايرون ستروم نحو النافذة وأضاف متأمّلاً الوادي:

ـ لو ذهب أحد السكّان المحلّيين لجمع ثروة في مكان آخر من المغرب، لَعادَ دوماً إلى بلده ليتزوّج، ويبنيَ أحد المنازل الورديّة المستوية السَّطح التي تُشبه القلعة إلى حدّ ما. وهناك يؤسّس عائلته ويعيش سعيداً، كما في جنّة صغيرة.

وظهر في صوته شيء من الغيرة، فسألته نيڤادا بعد صمت:

ـ وهذا ما تودّ القيام به أيضاً؟

ـ ربّما، عندما أصير طاعناً في السنّ وعاجزاً عن الإستمرار في حياة المغامرات التي أعيشها، أجاب باستخفاف.

وقفل راجعاً.

ـ ... لقد استخدمتُ امرأة لتهتمّ بك. وأخشى تماماً ألاّ تتمكّني من التفاهم معها سوى بالحركات.

وتبيّن لها أن الخادمة شابة فاتنة بحق. خجولة إلاّ أنها راغبة في نيل الإعجاب؛ فأحضرت ماء ساخناً وعدداً من القفاطين. كان أكثرها صغيراً جداً، بيد أن نيڤادا عثرت على واحدٍ يلائمها، كان موشّى بالذهب، ولونه غايةٌ في الروعة. دسّت رجليها في بابوجين جديدين، وإذ رأت أنه من الغباء عدم تقلّد الجواهر التي أعطاها إيّاها تايرون ستروم، فقد قرّرت التزيّن بها.

نظرت إلى صورتها في مرآة غرفتها. ولمّا شاهدت شعرها الأصهب منتثراً على كتفيها، فكّرت في أنه من الصعب إيجاد ثوب يُبرز جمالها بهذا الشّكل، حتى في أفخم محلاّت باريس.

كان القفطان الطويل من الحرير الناعم يقولب جسدها، مبرزاً نحافتها عوضاً عن إخفائها.

ولم يكن في وسع نيڤادا إلاّ أن تتصوّر الأثر العميق الذي قد تُحدثه في نفوس رجال نيويورك وباريس ولندن، أولئك الذين أسرفوا في اطرائها واضعين قلوبهم تحت قدميها.

«إنّه لأمر مؤسف ألاّ أجد أحداً أُثير إعجابه!». قالت متنهّدة.

ذاك أنّها لم تكن تخدع نفسها بمشاعر تايرون ستروم تجاهها. فقد كان واضحاً على الدّوام: كان يحتقرها وينعتها بالسّاحرة!

لكن، بالرغم من أن ذلك أغضبها، فقد فهمت في الوقت الحاضر أنّ إهانته لها تجد ما يكفي لتبريرها.

ومرّة أخرى، تراءى لها الهيكل العظمي تحت الشّمس

المحرقة، واستمعت إلى صوتها وهي تقول لدافيد إنه قد يكون من الممتع رؤية رجل ميت.

لو لم يتصرّف تايرون ستروم بمثل تلك السرعة، ولو لم يشاهد رجال الشّيخ قبل أن ينقضّوا على القافلة، فلربّما وقعت الآن دزينة من الضحايا أو المحتضرين بين الصخور، ولربّما قضت هي أيضاً بفضل أخر رصاصة في مسدّس رفيقها.

وأشاحت نيفادا بنظرها عن المرآة كما لو أنّها لم تعد، فجأةً، تحتمل رؤية وجهها.

«كيف لي أن أعلم بوجود بلاد لا يستطيع مَن يقيم فيها من الرجال العيش إلاّ والبندقية في يده، وحيث الشيء الأهم أن يبقى الإنسان على قيد الحياة»؟ فكّرت في سرّها. فهي لم تكن قد أدركت بعدُ كم هي الحياة ثمينة، وكم من الصعب أحياناً المحافظة عليها.

وكان يبدو لها الآن أنها خاطرت بشيء لا يقدّر بثمن وتفوق قيمته كلّ شيء: الحياة، مجرّد التنفّس والوجود.

كان تايرون ستروم غريباً بالنسبة إليها تقريباً، إلاّ أن دافيد أخبرها عنه بالاحترام الذي يسبغه شاب على بطل.

كانت نيفادا تعرف بإبهام أنّه عاش مغامرات عديدة خطرة، وغالباً ما أظهر فيها قدراً كبيراً من الإقدام. بيد أنّ تايرون ستروم نفسه لم يكن يتحدّث عن ذلك؛ فقد كان سرّه.

ليس عجباً، فكّرت في نفسها، أنه، وهو الذي وجد نفسه مرّات عدّة في أوضاع شائكة، أن يرى من المعيب والمثير للغضب أن تُقدم امرأة على الإستخفاف بالموت أو القول بأن

ثمّة متعة في رؤية ميت. « لا، أنا لستُ كذلك، تمتمت نيفادا في سرّها. إلاّ إذا...؟»

ولمّا انضمّت إلى تايرون ستروم في الصالون، شعرت نيفادا بشيء من الإنزعاج.

كان من السّهل عليها الإستلقاء بالقرب منه في واحة، وهي ترتدي ثياب أهل البلد. بيد أنه كان من الصعب عليها تناول الطعام معه على انفراد، وهي لا ترتدي سوى قفطان من الحرير، محلولة الشّعر: هذا الموقف كان يجعلها تعي نفسها بشكل غريب.

كان الطعام جاهزاً. فقُدّم إليهما على طاولة منخفضة، وجلسا معاً على ديوان مريح تزخر فيه الوسائد الحريرية.

وإذ كانت نيفادا منزعجة، فقد كان تايرون ستروم، من جهته، مرتاحاً للغاية.

ـ أشعر بأنكِ لا تمانعين في شرب كأس من النبيذ، قال لها، إنه مشروب لا يُقدَّم لكِ أبداً في منزل مسلم. لكننا هنا بمنأى عن أيّة قيود دينيّة، فأمل أن تتذوّقيه بسرور.

كان النبيذ لذيذاً بحق، وربطته نيفادا في مخيّلتها بالشّمس التي تسطع في الخارج.

كان الوقت قد تخطّى الظهر والحرارة شديدة. وكان تايرون ستروم قد أرخى الستائر على النافذة المجرّدة من الزجاج، تاركاً الغرفة في ما يشبه الظل الندي.

كان الطعام المغربيّ شهيّاً. وكانت نيفادا جائعة إلى حدّ أنها

أكلت بصمت إلى أن جيء بالحلوى. فاعتدلت في جلستها، وقالت:

ـ لا شك في أنني كنت شرهة في الأكل. إعذرني.

ـ وأنا كنتُ جائعاً أيضاً. إنّ الإنفراج بعد الخوف لَفاتحٌ للشهيّة ممتاز.

ـ لقد خفتُ... للغاية.

ـ لاحظتُ ذلك.

لقد تذكّر، بدون شك، كيف راحت ترتجف عندما دلف رجال الشّيخ إلى الوادي. لذلك شعرتْ الآن بالخجل لأنّها لم تبرهن عن مزيد من الشجاعة.

ـ ربما تفهمين الآن أن المرأة، مهما كانت متحرِّرة، بحاجة إلى حماية رجل متى مرَّت في وضع كالذي وجدتِ نفسك فيه اليوم.

ـ تعرف تماماً أنّني فهمتُ ذلك، أجابت نيفادا. فلا حاجة بكَ لأن تجعلني أكثر تواضعاً مما أنا عليه!

ـ متواضعة؟ هل أنتِ حقاً متواضعة، يا نيفادا؟ إنّها آخر صفة كنتُ أظنُّ أنكِ تتحلّين بها.

ـ أعرف رأيك فيَّ تمام المعرفة. وعذري الوحيد هو جهلي المطلق. فمن السّهل حقاً أن نكون شجعاناً عندما نجهل الأمر الذي نتحدّث عنه. كذلك، قد يكون من السهل عدم فهم شعور الآخرين، عندما لا ينتابنا الشعور نفسه.

ـ إنّه اعتراف نبيل، قال تايرون ستروم بهدوء.

ثم نهضت نيفادا عن الديوان واتّجهت نحو النافذة.

فأزاحت الستائر لتنظر إلى الخارج. كانت الشمس تعمي الأبصار تقريباً، وكذلك الهضاب الورديَّة.

ـ كم من الوقت سنمكث هنا؟ سألت.

ـ هذا رهن بالظروف. هل أنتِ في عجلة من أمرك؟

ـ ليس في الوقت الحاضر.

ـ آه! ولماذا؟

ـ لأنّ ... حبّ الإطّلاع يتملّكني. الإطّلاع على هؤلاء القوم، هذه الأمكنة و...

ـ وحبّ الإطلاع على ماذا أيضاً؟

ـ إذا كنتَ تصرّ على الحقيقة... عليكَ أنت؟

ـ كيف؟

ـ أودّ أن أعرف لماذا تذهب إلى هذا الحدّ في ما يتعلّق بي، لماذا تلعب لعبة الإله. أواه! لإنقاذ داقيد، بالتأكيد.

ولكن، كان بإمكانك أن تقوم بذلك دون اصطحابي إلى هذا المكان السرّي الذي يبدو مهمّاً للغاية في نظرك.

تكلّمت بصوت ثابت. وعندما صمتت، بدا أن السكون الذي ساد يحمل نكهة معيَّنة.

ولمّا أحجم عن الجواب، أسدلت نيفادا الستائر وقفلت راجعةً. كانت الشمس قد أعمتها في البداية، فلم تتمكّن من رؤية أيّ شيء. ثمَّ شيئاً فشيئاً، راته لا يزال مستنداً على الديوان ويحدّق بوجهها بإمعان.

وبهدوء، إقتربت ووقفت أمامه، وفي عينيها الخضراوين المتناقضتين مع بياض بشرتها، علامة استفهام واضحة البلاغة.

لزم تايرون ستروم الصمت لثوانٍ أُخَر. كانت عيناه مُثبتتين في عيني نيڤادا، كما لو كانتا تسبرانِ الفتاة في أعمق أعماقها أخيراً، بكثير من الهدوء، وعلى طرف شفتيه ابتسامةُ هزء خفيفة، كأنه أراد تجريد كلماته من أي مغالاة، قال:

ـ نيڤادا، أشعر بأنك بدأتِ تعرفين نفسَك بشكل أفضل.

كانت نيڤادا تنظر من النافذة، ومرّة أخرى، تضيع في روعة المشهد.

وتحتها مباشرةً، كان سور القصبة يهوي عمودياً، تنيره الأشجار المزهرة.

وأمام ناظريها، كانت الطريق تتعرَّج من التلّة حتى مدينة الفراؤوت الصغيرة.

وهناك في البعيد، كان الوادي المضيء تحيط به الجبال الصوّانيّة عاكسةً كلها تلك الظلال الورديّة.

مهما تكن السّاعة، كان الوادي يبدو ضاحكاً أكثر فأكثر.

وكان من الصعب التصوّر بأن في مكان غير بعيد من هنا أودية قاحلة وجدباء لايعثر المرء فيها إلاّ على جلاميد وأتربة صخريّة.

كان قد مضى عليها في قصبة تايرون ستروم اسبوع تقريباً.

لقد مرَّ الوقت بسرعة كبيرة. وكان يُخيَّل إليها أحياناً أنها لم تعرف مرّةً حياة أخرى وأنها عاشت أبداً في هذا الهدوء

والصفاء، محاطةً بجمال يخاطب لا العقل فحسب، بل الروح أيضاً.

وأمامها على مكتب مُرتَجَل، توزّعت مخطوطة تايرون ستروم تقوم بنسخها على ورق عادي.

لمّا قال لها إنه يُؤلّف كتاباً تاريخيّاً، توقّعت قراءة نصّ عويص بل ربّما صعب الفهم، شبيه بالنصوص التي قرأتها في اليخت. لكنّها أخطأت في ظنّها واعترفت لنفسها، بعد تفكير، أن تايرون ستروم لا يمكن أن يكتب سوى أشياء مبتكرة، حسب شخصيّته المميّزة.

كان يضفي روحاً على القبائل التي يتحدّث عنها، يبعث في أفرادها الحياة، بمشاكلهم وقضاياهم. تحت ريشته، كان الرجال والنساء يبكون ويضحكون، ويواجهون هزائمهم بشجاعة.

بعد كلّ صفحة تنسخها، كان اهتمامها يزداد ليس فقط بالبربر، بل خصوصاً بالكاتب الذي كان مدعاة لفضولها أكثر فأكثر.

فلطالما بدا تايرون ستروم في نظرها قاسياً ومستخِفّاً. والحال أنها اكتشفت بأنه يتحلّى، بالإضافة إلى روحه المرحة، بمقدرة على الشّفقة والتفهّم تجعل من النص الذي يكتبه نصّاً مؤثّراً، وغالباً ما كانت نيقادا نفسها تتأثّر بذلك وتبكي دونما قصد.

لقد أدركت من قراءة المخطوطة وكذلك من المحادثات العديدة التي كانت لها مع تايرون ستروم أنه يملك موهبة بالتأكيد، لكنّه أيضاً رجل غامض. كانت في كل لحظة تكتشف أشياء جديدة فيه، وفي كل لحظة، كان يبدو لها بمظهر مختلف.

«أنا واثقة من أن لا مثيل له على الأرض»، قالت في نفسها وهي تتأمّل الوادي.

وفجأةً، كما لو أنّ أفكارها كفت لإظهاره، شاهدته يتسلّق المنحدر، آتياً من القرية.

كان راكباً جواده، يحيط به عدد من الرجال معتمرين العمائم ومرتدين الجلاّبيّة التقليديّة، وكلهم يتكلّمون بحماسة ويقومون بحركات كثيرة. أما هو، فلم تشكّ نيقادا في أنه كان وإياهم اهتمامه كلّه.

كانت الآن تعرف ملكته على التركيز وتُعجب بها، تلك الملكة التي لم يكن يفوّت فرصة استخدامها على كل شخص يهمّه أمره. فقد يكون رجلاً يبحث معه في شؤونه وشجونه الشخصيّة، أو طفلاً وجده يبكي في الشارع فراح يخفّف عنه.

لم يكن يجد أي شيء سطحيّاً وتافهاً. وقد انتهت نيقادا إلى الإستنتاج من ملاحظاتها بأن تايرون ستروم شخص مميّز لأنه نادراً ما كان يُفكّر في نفسه.

كانت الفتاة تعيش حياة غريبة في القصبة الورديّة. بيد أنها لم تكن لتحلم يوماً بمثل تلك الحياة.

كانا كلّ يوم يتناولان طعام الفطور معاً، بُعَيْد عودة تايرون ستروم من نزهته على ظهر الجواد.

كان قد درج على مغادرة القصبة قبل استيقاظ نيقادا بكثير. وهي كانت تودّ لو ترافقه، إلاّ أنها كانت خجولة جداً لتطرح عرضاً كهذا.

كان يعود مع إشراقة الشمس. وبالرغم من الهواء البارد في

تلك الفترة، كانا يجلسان في الفناء الداخلي الذي ترتفع حوله أسوار القصبة.

هناك، كانت تنمو نباتات عدَّة، وأزهار وحتى أشجار مثمرة، وكان نبع ماء حجريّ صغير منبجس المياه يرافق أحاديثهما بخريره الموسيقي.

وحالما ينتهيان من فطورهما، كان تايرون ستروم ينكبّ على عمله، فتحذو نيفادا حذوه لعدم وجود خيار آخر أمامها.

كانت قد توهَّمت في بداية الأمر أنّه سيتركها وحيدة بلا شيء تقضي به وقتها، كما كانت حالها في اليخت. بيد أنه، لمّا اقترحت نَسْخَ المخطوطة، سارع فأخذ كلامها على محمل الجدّ وعرض أمامها الصفحات التي انتهى من صياغتها وتصحيحها.

وبدأت عملها فوراً، فصعب عليها أحياناً إدراك التعديلات التي أجراها والإضافات والإحالات. كما أنها لاقت صعوبة في فهم الكلمات المستقاة من اللغة المحلية.

وكانا يلتقيان أيضاً لتناول الغداء. وبعد طعام خفيف، إنما لذيذ، كان السكون يخيِّم على القصبة، فيخلد كلهم إلى القيلولة.

في ذلك الوقت، كان تايرون ستروم ونيفادا يتجاذبان أطراف الحديث في نداوة الصالون المنعشة، بينما الستائر مسدلة، والمراوح تتماوج فوق رأسيهما.

تردَّدت في بداية الأمر في طرح أسئلة عليه، مخافة أن يزجرها. ثمَّ، بعد أن بدأت تسترخي على الدواوين الوطنية، سرعان ما تملَّكتها جرأة الاستفسار منه عن كل أنواع التفاصيل التي تجهلها.

لا أسئلة تتعلّق بمهنته. فقد كانت أكيدة من عدم إجابته عليها.

علمت أن أيّ انكليزي آخر لم يتمكّن من السفر عبر الجنوب المغربي كما فعل هو، ولا من بناء منزل في طفراوُوت.

ـ إن القبائل ترتاب في الغرباء والكافرين، قال لها شارحاً. ويُنظر إلى المسافرين بكثير من الريبة، وعادةً ما ينتهي أمرهم بالقتل.

ـ أما أنتَ، فأنت مختلف، أليس كذلك؟

ـ لقد توصَّلوا إلى منحي ثقتهم لأسباب مختلفة، أجاب مراوغاً.

وأول مرَّة زرتُ فيها المنطقة، كانوا يرسلوني من قبيلة إلى أخرى مزوَّداً بحربة خاصة تقوم مقام التعويذة، وتتيح لي الذهاب إلى حدود الأراضي المجاورة.

وضحك ضحكة مدوِّية ثم أضاف:

ـ إن المكان الذي نمكث فيه الآن غاية في السريَّة بحيث تشير إليه الخرائط على أنّه «جبال صحراويَّة قليلة السكان».

ومع أن تايرون ستروم أبى الإسترسال في الحديث عن أعماله إلاّ أنه، في المقابل، تحدَّث بطيبة خاطر عن الأماكن التي زارها، والناس الذين التقاهم. فضلاً عن أنه عرض لها أفكاره وفلسفته، خصوصاً خلال اليومين الأخيرين.

«لقد تعلَّمتُ هنا أكثر من أيّ مكان آخر»، كانت نيفادا تقول في نفسها، وهي تراقب الرجل يرتقي المنحدر على صهوة حصانه.

كانت الشّمس في ظهره فبدا وكأنّه محاط بهالة. وخطر فجأة في بال نيفادا أنّها لم تجد نفسها أبداً في حضرة رجل بمثل هذه العدوانيّة، يتمتّع بشخصيّة لها ما لها من مهابة.

وقرّرت منذ ذلك الوقت عدم تحدّيه، ذاك أنّها تحبّ الإستماع إلى حديثه. ثمّ إنها كانت تعي تماماً أن لديه الكثير يعلّمها إيّاه وأنها تكون غبيّة إن لم تستفد من ذلك طالما هي برفقته... بطيبة خاطر أو رغماً عنها...

وفجأةً، خطر في بالها أنه يوماً ما، غداً، أو بعد أسابيع، سوف يقرّر الرحيل. وسوف يعيدها إلى المجتمع الذي ألفته قبلاً، كانت تودّ من كلّ قلبها أن يحصل ذلك. وها هي الآن، بطريقة مفاجئة تماماً، تكتشف أنّها لا ترغب في الرحيل. وكان لتلك الفكرة مفعول طلقة المسدّس.

كان من غير المجدي التساؤل عن سبب ذلك. فالأرض قد انشقّت، ووجدت نفسها على شفير هاوية ترتفع منها أصوات جهنّمية تسخر منها لأنّها تريد البقاء معه.

ومن أعماق كيانها، صرخت صرخة مدوّية. «لا! لا» تمتمت. «أنا أكرهه، أكرهه لأنّه عاملني كما تجرّأ على معاملتي!». بيد أنّ الضحكات الحقودة كانت تهمس لها أنها تحبّه. وكانت نيفادا تتخبّط. ففي حين كان رأسها يصرّ على البغض، كان قلبها يصرخ لها بالحقيقة: إنها تحبّه.

«أواه! يا إلهي، إنّه لأمر مستحيل!» هتفت عالياً.

ومع ذلك، كلّما كانت تعترض كلّما كانت تتأكّد من الحقيقة: إنّها تحبّه فعلاً.

والحقّ يُقال إنّ حقدها تبخّر يومَ راحت ترتجف خوفاً خلف الصخور، في اللحظة التي أدركت فيها أنّ تايرون ستروم سوف يحميها من رجال الشّيخ.

ثم، عندما ضمّها بذراعيه وهم يسرعون نحو طفراؤوث، على رأس القافلة، شعرت بالتعزية والإنفراج، وكذلك بشيء إضافي: إحساس غريب بأنّه يضمّها إليه وأنّ بإمكانها إخفاء وجهها في كتفه.

يومها، لم تعترف بذلك، كما لم تعترف به فيما بعد، عندما نامت في الغرفة المجاورة لغرفته، هانئة كطفلة صغيرة لأنّها تعرف أنّه قريب منها إلى هذا الحدّ.

«يومها كنت أحبّه»، فكّرت نيفادا، «وقد تضاعف حبّي له يوماً بعد يوم. وحدها كبريائي منعتني من الإقرار بذلك».

مرّت الأيّام مسرعةً جداً وهي تقرأ كتاب تايرون ستروم. كانت تعدّ الساعات التي تفصل بينها وبين طعام الفطور حتى يتجاذبا الحديث؛ أما السهرات فكانت سحراً لا يقاوَم.

***

تذكّرت مساء اليوم الثاني، حين دخلت الفناء الداخلي حيث كان ينتظرها، فوجدت الطاولة مضاءةً بالشمّوع. وإذ شاهدت النور ينعكس في النّبع، قالت بتهكّم.

- يا للمشهد... إنّه بحق ديكور مسرحي!

- نعم، لكنّه أيضاً غاية في الرومنسيّة.

- لا أعرف شيئاً عن هذا الأمر. أنتَ تعرف أنّ الرومنسيّة لا تهمّني كثيراً.

ـ إذا كنتِ تفتقرين إلى هذا، فالأمر مؤسف.

ـ لا أوافقكَ الرأي. فأنا بذلك أوفّر على نفسي آلام الرأس والآهات غير المجدية التي تجعل الناس في رخاوة وسخف.

ـ منذ بداية الأزمنة، كان الحب هو الذي حدا بالناس إلى إنجاز المآثر البطوليّة، فالحبّ هو الذي أوحى لهم بالأعمال الرائعة، إن في مجال الرسم أو الأدب. إنّ الحب هو الذي يكمن، مثلاً، وراء بناء مدفن تاج محل الرائع.

ـ أُشفِق على النساء اللواتي كان عليهنّ احتمال العهود المتباكية.

ـ إنّ الله في خلقه شؤون، أجاب تايرون ستروم. لقد منحك جسدَ إمرأة ووجه إمرأة لكنّه نسي القلب.

ـ وهو ما أشكر السّماء عليه كلّ يوم من أيّام حياتي، قالت نيڤادا. ففي حين تتلوّى نساءٌ أُخريات في قيود من صنعهنّ، تراني، أنا، حرّةً.

وإذ تبيَّنت وميض استهزاءٍ في عينَيْ تايرون ستروم، أضافت بهدوء:

ـ أواه! أتكلّم عن الحرية من وجهة النظر العاطفيّة، بالتأكيد! فأنا أعرف تماماً أنني، من الناحية الجسديّة، سجينتك.

ـ لو تصرّفتُ كما كان الرجال يفعلون منذ قرن خلا، لسجنتكِ في زنزانةٍ دامسة. إن في أسفل كل قصبة في الجنوب المغربيّ واحدة مشابهة.

ثمّ أضاف مبتسماً:

ـ ... فيما مضى، كان المسجونون يعلّقون ببعضهم بعضاً بواسطة حلقات ثقيلة وقيود. وكانوا يتناولون من الطعام ما يكفي لإبقائهم على قيد الحياة، ليس إلاّ.

ـ يا للهمجيّة!

ـ صحيح. وقد كانوا يمضون حياتهم كلها في الظلمة. وحده الموت كان خلاصهم.

ـ إذاً، كان هذا ما ينتظرني!

ـ أواه! لو فكّرتُ مليّاً بالأمر، لشككتُ في ذلك. فخاطفكِ كان وجد لكِ مكاناً في حريمه.

وارتعشت نيڤادا لفكرة أنّها كانت على قاب قوسين من مصير مماثل. الحريم أو الزنزانة! كم من النِّساء لم يُقيَّض لهنّ هذا الخيار؟

والحال أنها عشيّة اليوم السّابق، وجدت نيڤادا نفسها عاجزة عن إطلاق المزاح حول الجو الأخّاذ للفناء الصغير. كانت مسحورة بشكل من الأشكال.

كانت، في قفطانها الأزرق الغامق، تشعر وكأنّها قطعة من السّماء.

واستسلاماً منها لمزاج غريب أو بدافع الغنج، وضعت نيڤادا على شعرها المتوهّج بُرقعاً أزرق، وزيّنته بمشابك على شكل أنجم.

وبينما كانت تتقدّم نحو تايرون ستروم، راحت تدقّ بهدوء أجراسٌ فضيّة صغيرة علّقتها في خلاخل جعلتها في قدميها. وغريزيّاً، كانت تعرف أنّها في آنٍ معاً غامضة وجذّابة.

نظر إليها بغرابة لم تتمكّن من تفسيرها تماماً، بيد انّها شعرت بأنه مدرك لوجودها تماماً كما كانت هي مدركة لوجوده.

تحدّثا في المواضيع المعتادة: كتابه، اكتشافُ جديدٍ ما يتعلّق بقبيلة مغربيّة. بيد أن فترات الصمت لم تغب: لكنها كانت لحظات بدا أنّ جمال الأزهار وسقسقة النّبع يتكلّمان فيها نيابةً عنهما.

حينئذٍ شعرت بنفسها وكأنّها آلة موسيقيّة بين يدي عازف بارع. إلاّ انّها لم تكن ترغب أبداً في الإقرار بذلك.

كلّ كلمة نطق بها، كان يُخيَّل إليها انّها تحمل معنى خاصاً يبلغ في آنٍ معاً روحها وجسدها.

كان، هو، هادئاً جداً. بيد انّها شعرت بأنه يسيطر عليها بكامل طاقته إلى حدّ امتصاص حياتها، بامتزاج انفاسها بأنفاسه.

وعندما أزفت ساعة النوم، نهضت نيفادا ولبثت مدّة بالقرب من النّبع. كانت تحسّ بما يشبه الحمّى، وبحاجة إلى التبرّد. وخُيِّل إليها انه يراقبها، إلاّ أنها لم تتأكّد من الأمر.

هل تُراه يدري بأنّه سبب اضطرابها، سبب ريبتها المفاجئة والصّخب الذي يجتاح صدرها والذي تخشى تسميته باسمه؟

ـ عِمتَ مساءً.

كان بودِّها أن تمكث أكثر، لكنّ خوفها كان كبيراً.

ـ عمتِ مساءً، نيفادا.

لم يكن في الكلمات التي تلفّظ بها بصوت هادىء ورزين أيّ شيء قد يسرِّع ضربات قلبها، إلاّ أنّ حركة تنفُّسها زادت سرعةً.

كانت أفكارها تتزاحم. ماذا لو طلبت منه أن يلمسها، أن يقبّلها، كأيّ رجل يحاول في ظروف كهذه أن يقوم بذلك؟

وذُهلت نيفادا من خيالها الجامح. كيف يمكن لأفكار مماثلة أن تجول في فكرها، أيّاً كان الرجل، فكيف بالأحرى تايرون ستروم.

كانت تكرهه. فهو يمثّل كلّ ما ترفضه وكل ما يثير غيظها.

ـ عِمتَ مساءً! ردَّدت بإيجاز.

ثمّ غادرت الفناء دون الإلتفات خلفها.

ولكنْ، ما إن دخلت إلى غرفتها وأقفلت بابها، حتى وضعت يديها على خدَّيها اللاّهبين، متسائلة إنْ لم تدفعها الشمس المغربيّة إلى الجنون.

كذلك، تذكّرت أنه غداة وصولهما، أحضر بعضُ التّجار صبيحة ذلك اليوم تشكيلة كبيرة من القفاطين، كما وعد تايرون ستروم.

كانت كلها غاية في الجمال بألوانها الغامقة والفاقعة، كما تحبّها نساء البربر، فهي ناعمة الزركشة، تختلط في بعضها خيوط الذهب والفضّة بالفيروز، والمرجان والجَمْشَتْ المجلوب من الأطلس الأعلى.

وكان معهم أيضاً أخمرة وغلائل وأوشحة، لا يُمكن للناظر إليها أن يقول أيّها الأجمل.

قرَّ قرار نيفادا على بعضها فتولّى تايرون ستروم أمر المساومة عنها. ذاك أن عدم المساومة يعني انتزاع المتعة من التاجر الذى ينتظر أن تكون كل عملية بيع رياضة للفكر أيضاً.

كذلك، حضر بائعو المجوهرات، فجلسوا شابكي الأرجل، وعرضوا بضائعهم على مربّعات صغيرة من المخمل الأسود.

ولم تقوَ نيڤادا على مقاومة قرط من الفضّة، منحوتٍ على شكل هلال، مرصّع بالأحجار الكريمة أو اللآلىء، صنعته أيادٍ فنانين حقيقيّين.

كانت الأساور ذات الرسوم الغريبة ساحرة للألباب، وكذلك الخلاخل المتجانسة معها. ومن بين هذه الأخيرة، فتنتها تلك التي عُلّقت فيها أجراسٌ صغيرة بحيث كانت تضعها في قدميها العاريتين المدهونتين بالحنّة، كلّما جلست لتناول العشاء مع تايرون ستـرون في الفناء الداخلي الصغير، تحت السّماء المكوكبة.

- إنني أمسكُ حسابات ما تنفقه عليَّ، قالت له، فسوف أدفع ما أدين لك به. لقد كنتُ أحمل الكثير من المال.

- مالك في مكان أمين.

- علينا أن نأتي بقافلة من عشرين جَمَلاً على الأقل لنقل جميع مشترياتي، كانت تهتف ضاحكة.

- سوف نتدبّر الأمر، أعدكِ، حالما نقرّر الرحيل.

- حالما تقرّر أنتَ الرحيل، كانت تصحّح له.

ويضحك.

- إنكِ على صواب. عندما أقرّر إعادتك إلى أوروبا.

كانت تودّ لو تطلب منه المزيد من الإيضاح. لكنّها، بالرغم من أن الكلمات كانت قريبة من شفتيها، كانت تخشى أن يفسّر فضولها رغبةً منها في الإسراع بالرحيل.

كان تايرون ستروم قريباً جداً من القصبة، ولم تكن نيڤادا تشيح بنظرها عنه وهي تفكّر: أحبّه! كيف قُيِّض لهذا أن يحدث؟ ما العمل؟

فمنذ وصولهما إلى طفراوُوت، ما فتىء يُظهر مجاملة واهتماماً برفاهيتها، تماماً كما كان ليتصرّف حيال أيّة ضيفة.

بيد أنّها لم تلاحظ أبداً تحت هذه المجاملة السطحيّة، ما يدلّ على تبدّل في الرأي. كانت لا تزال تسمعه يقول لها: «لستِ امرأة طبيعيّة، نيڤادا، فأنتِ قاسية، بلا قلب، حتى أكاد أقول إنك شيطانة!».

كان صوته الحازم لاسعاً كالسّوط، وتذكّرت أيضاً هيئته العابسة والصّارمة عندما أعلن: «لم أصطحبكِ لإنقاذ ابن اختي دافيد وداندولاند الشاب فحسب، بل أيضاً كي أرى إن كان بالإمكان تحويل ساحرة إلى امرأة!».

تحويل ساحرة إلى امرأة! كانت هذه الكلمات تقضّ مضجعها، حتى أنها كانت تستفيق أحياناً في الليل على صوته لا يفتأ يردّدها.

لذلك، كان من السهل عليها القول إن لا أهمية البتّة لمشاعر أو آراء تايرون ستروم حيالها، وانها سوف تثأر لنفسها عندما تسترجع حريتها. لم تكن تعرف بعد كيف ستثأر تماماً، لكنها سوف تهينه، وتسبّب له الألم الذي سبّبه لها.

«أكرهه! أكرهه! أكرهه!» كانت تتلو كالصلاة يومياً دون كلل.

وها أنا أحبُّه الآن! كانت نيڤادا تعترف لنفسها إذ يتملّكها اليأس.

«كيف يمكن أن أُحبّ رجلاً له فيَّ هذا الرأي التّافه؟».

والحال أنه لم يكن ثمة مجال للشك في الأمر: نيڤادا عاشقة. يكفي أن ترى تايرون ستروم داخلاً الصالون حتى يهتزّ قلبها في صدرها للتوّ. يكفي أن تسمع نبرة صوته حتى تصعد إلى حلقها إثارة غريبة. وعندما يضحك، كان وكأن الشّمس تسطع أكثر والحياة فيها تتضاعف.

أدار تايرون ستروم جواده تجاه مدخل القصبة، وما لبث هو ومطيّته أن اختفيا عن العيان.

وحده جمال الوادي وصوته بقيا في المشهد، فراحت نيڤادا تتأمّله، مستشعرةً بأنه عليها ألاّ تفوّت تلك الروعة ولو لحظة واحدة، إذ أنّه سيأتي يوم تُحرم فيه منها.

لن يبقى لها سوى الذكريات بعد أن يعيدها إلى اوروبا، وبعد أن ترجع هي نفسها، فلا تعود تلك السّاحرة التي يعمل جاهداً لتحويلها إلى امرأة، وبعد أن تعود نيڤادا ڤان أردِن.

متى يحصل ذلك؟

خفضت نظرها على المخطوطة فلاحظت أنها اشتغلت كثيراً في الأيّام الأخيرة. قد ينتهي الكتاب في وقت قريب. فهي لم تكن تملك أيّة فكرة عن الحجم الذي سوف يعطيه لمؤلّفه.

كيف ستكون عقليّته فيما بعد؟ هل تُراه سيبحث عن مغامرات جديدة؟ كانت نيڤادا تعرف الجواب في قلبها، فهو ليس بالرجل الذي يبقى مكتوف اليدين لفترة طويلة.

أن يأخذ بضعة أيّام من الراحة، فهذا أمر آخر. اما الحقيقة فهي أنه يحتاج إلى الحركة ليحقّق ذاته.

«وماذا لو لم أعد أراه أبداً؟» كان هذا السؤال يحتلّ فكر الفتاة منذ أيام. وفجأةً، شعرت نيڤادا بألم مفاجىء، كما لو أنّ خنجراً أُغمد في صدرها. نهضت وتوجّهت إلى الصالون لتنتظر تايرون ستروم.

وصل بعد دقائق؛ فرأت أنه يحمل رسالة.

ولمّا نظرت إليه بدهشة، قال مفسِّراً:

ـ قيل لي إنّ ثمة ناقل بريد يرغب في رؤيتي، وقد أردتُ تجنيبه هذه المسافة الطويلة.

ـ الناس إذاً يعرفون أنك تقيم هنا؟

ـ أواه! بعض الأشخاص، فقط ممّن اخترتُهم. لكنْ، إعلمي أن هذه الرسالة مهمّة من الناحية الديبلوماسيّة.

وثار فضول نيڤادا، إلاّ أنها، إذ رأته يضع الرسالة على مكتبه دون فضّها، لم تتجرّأ على طرح المزيد من الأسئلة.

ـ لقد أهملتُ عملي هذا الصباح، قال ملاحظاً.

كانت نيڤادا تراقبه، ففهمت فجأةً أنه يودّ أن يبقى بمفرده

ـ ليس من عادتك ركوب الحصان بعد الإفطار.

ـ إذا كان ما تقولينه توبيخاً، أجاب بابتسامة هازئة، فاسمحي لي أن ألفتكِ إلى أنني بالكاد أضعتُ ساعة من العمل.

ـ أواه! لم يكن كلامي توبيخاً، أجابت نيڤادا بحيويّة. فكّرت بكل بساطة أن ذلك لم يكن من عاداتك، لا أكثر.

ـ لقد اتّبعنا توقيتاً بيروقراطياً، وهذا خطأ في نظري. إنّ الطقس أكثر برودة اليوم. هل تودّين مرافقتي في نزهة على ظهر الحصان؟

ـ حقاً؟ أهذا ممكن؟ هتفت مذهولةً.

ـ لم أصطحبكِ من قبل لأسباب واضحة، أجاب. بيد أن الأصدقاء الذين أرسلتهم لاستكشاف الجوار نقلوا إليَّ أن لا أثر منظوراً لرجال الشيخ؛ وأفترض أنهم تخلّوا عن ملاحقتهم لك.

ـ أمل ذلك، قالت نيفادا بحيويَّة. إذاً، أستطيع حقاً الخروج دونما خشية؟

ـ ولكن، من الأفضل أن تضعي لثامك. لديّ جواد فتي سوف يعجبك بالتأكيد. إنّ بإمكانه حمل سرج مريح بما فيه الكفاية.

ـ سوف أكون جاهزةً بعد دقيقتين.

وأسرعت الى غرفتها تحضر الخَيْك.

كانت ترتدي قفطاناً جديداً من الحرير الأبيض الموشّى بالفضّة. ولم يكن ثوبها يناسب ركوب الخيل، بيد أنها لم تكن تملك الوقت لاستبداله.

وضعت اللِّثام فوق أنفها، وتدثّرت بالخَيْك ولحقت على عجل بتايرون ستروم.

ـ سريعةً كنتِ! قال مبتسماً.

ـ خشيت ألاّ تنتظرني!

ـ تفهمين أننا لن نتمكّن من الذهاب بعيداً جداً إذ لن تلبث الحرارة أن تشتدّ. سوف نذهب بالأحرى غداً. تأتين معي بعد الفطور، إذا شئتِ.

ـ هذا غاية ما أتمنّاه، أجابت شبه لاهثة.

التفت تايرون ستروم نحو الباب؛ وفي تلك اللحظة، إندفع أحد الخدم الى الصالون.

ألقى التحيّات المعتادة لكنّ الإضطراب كان بادياً عليه. وراح انوّه يتكلّم بسرعة كبيرة، بصوت كان يرتفع من جرّاء الإثارة.

أصاخت نيفادا إليه، إلاّ أنها لم تفهم شيئاً. كانت تجهد نفسها لتعلّم اللغة طالبةً من خادمتها ترديد أسماء كلّ الأشياء الموجودة في غرفتها. وصار بمقدورها تركيب بعض الجمل القصيرة مثل: «أشكرك»، «هل بإمكاني أخذ المزيد؟» و«طابت ليلتك».

كان الخادم لَسِناً جداً، وتايرون ستروم يصغي اليه باهتمام، وعلى وجهه إمارات الوقار.

أخيراً، سكت الرجل. فتدخّلت نيفادا وقد انتابها القلق واستشعرت المصيبة:

ـ ماذا في الأمر؟ ماذا قال لك؟

ـ لقد حدثت هزّة أرضيّة.

ـ هزّة أرضيّة!.

ـ نعم، في قرية اسمها سَكْجينا. وعليَّ التوجّه إليها فوراً فربّما كنتُ ذا فائدة بشكلٍ أو بآخر، قال تايرون ستروم ممازحاً.

ـ إسمح لي بمرافقتك!

تكلّمت نيفادا دون أن تعي ما تقول تقريباً. فنظر اليها تايرون ستروم متعجّباً.

ـ حسناً! أجاب. الجوادان في الإنتظار خارجاً.

وبعد دقائق، غادرا الوادي لتلامس حوافر الجوادين أرض الصحراء المُحصِبة.

كانت المطيّتان تعدوان بسرعة فرفعت نيڤادا صوتها لتسأل:

ـ هل سَكْجينا بعيدة؟

ـ ستة كيلومترات أو سبعة.

ـ هل الهزّات الأرضية نادرة هنا؟

ـ إنها كثيرة الحدوث في هذه المنطقة من العالم، ولكن غالباً ما لا يفطن إليها أحد لأنّها لا توقع ضحايا.

كان يمكن أن تطرح نيڤادا ألف سؤال وسؤال، بيد أنّ تقدُّمهما كان سريعاً، وهي كانت تركزّ على البقاء على ظهر جوادها. فالواقع أنّه لم يكن من السهل امتطاء جواد من جانب واحد وإنْ كان السرج على شكل كرسي للأطفال يمكن التمسّك به. لقد كان التماسك على صهوة الجواد يتطلّب خبرةً كبيرة.

وما لبثا أن ولجا مكاناً تشرف عليه شعاب صخريّة المنحدرات، وتترامى فيه أودية مجدبة وأراض جرداء تنتشر عليها جلاميد الصخور.

ثمّ، عند نهاية أحد المعابر الوعرة، وقع نظرهما على بيوت صغيرة تتّكىء على جرفٍ عالٍ، فصرخ تايرون ستروم:

سَكْجينا!

كان ستارٌ كثيف من الغبار معلّقاً فوق المدينة. إقتربا أكثر، فأدركت نيڤادا حينها أن ما بدا لها من البعيد شبيهاً بالمنازل، لم يكن في الحقيقة سوى كومةٍ من المواد المشوّهة والممزّقة.

كان المنظر خليطاً مبعثراً من قطع السقوف، والجدران

والأبواب. كما انّ كتلاً من الحجارة التي انفصلت عن الجرف الصّخري قد علقت هنا وهناك، محافظةً على توازن خطير. وكان رجال ونساء هائمين بين هذه الفوضى، وقد استبدّ بهم الأسى بينما يصرخ بعضهم بأسماء مَن فَقَد.

كان الصوت مُصِمّاً للآذان. فلّما اقتربا ممّا كان قرية، شاهدا ثياباً ممزّقة من كل الألوان وقدحاً من النحاس يلمع في الشمس وبعض لوازم البيوت الغالية محطّمةً يعلوها الغبار.

بيد أنّ هول الفاجعة لم يغدُ جليّاً بحق إلاّ عندما وقع بصرهما على الجثث الهامدة طريحةً بين الأنقاض.

وفي حين قفز تايرون ستروم أرضاً، لاحظت نيڤادا رجلاً يتخطّى الأرض المتشقّقة، ويهرع لملاقاتهما. كان يرتدي الزيّ الأوروبي. وما لبثت أن تبيّنت من الياقة البيضاء والصديرة السوداء انتماء الرجل الى الكنيسة.

سلّم تايرون ستروم جواده الى صبيّ يعتني به بعد أن شرح له ما عليه عمله، ثمّ التفتَ وصاح:

أيّها المحترم! إنه لأمر رائع. لم أكن أنتظر وجودك هنا.

ـ كذلك أنا، سيّد ستروم.

كان الكاهن يتكلّم الإنكليزية بلكنة اسكتلندية واضحة.

ـ لقد أتيتُ حالما علمتُ بالفاجعة، قال تايرون ستروم.

هل هناك الكثيرون تحت الأنقاض؟

ـ عدد هائل.

ـ ينبغي القيام بشيء ما.

وأنزل نيڤادا عن جوادها بينما هو يتكلّم. فأمسك ولدٌ عربي آخر بزمام الجواد ليقوده الى غابة صغيرة من النخيل.

- نيڤادا، إسمحي لي أن أقدّم لك المحترم أندرو فرايزر. إنّه طبيب بارع ومُرسَل يحظى باحترام الجميع.

- إنك تكيل لي المديح، سيّد ستروم!

وصافح الكاهن نيڤادا دون أن يبدو عليه أيّ أثر للدهشة من مظهرها.

- الآنسة ڤان أردِن، أميركية في زيارة للمغرب، قال تايرون ستروم شارحاً. جِدْ لكِ مكاناً تركّز فيه مستشفىً؛ وسوف تساعدك.

ثم أقبلت نحوهم امرأة من أهل البلد، تحمل طفلاً صغيراً بين ذراعيها. كانت مغطّاة بالوحل والغبار وتنتحب بصوت عالٍ. وعلى ما يبدو. كان الطفل فاقداً وعيه، وربما ميتاً؛ وكان الدم يسيل من جرح في جبهته وآخر في فخذه.

خطا تايرون ستروم خطوةً نحو المرأة التي بدت وكأنها تكاد لا تقدر على حمل طفلها، فأخذه منها وعاينه لبضع ثوانٍ. ثمّ مدّه الى نيڤادا:

- إنه لا يزال حيّاً، وأمه عاجزة تماماً عن الإهتمام به. إذهبي برفقة الأب فرايزر وسوف يشير عليك بما تفعلين.

وعقدت الدهشة لسان نيڤادا فلم تُحر جواباً، بل تناولت الطفل من يديه بعد أن ردّت الخَيْك الى الخلف.

- آنسة ڤان أردِن، إتبعيني، قال أندرو فرايزر.

كان تايرون ستروم قد ابتعد فلم تتمكّن نيڤادا سوى من الإنصياع.

وخلال الساعات التالية، لم تستطع نيڤادا تحويل اهتمامها عن الأولاد الذين جيء بهم الواحد تلو الآخر.

كانت تعرضهم على أندرو فرايزر ليعاينهم عندما تكون جراحهم خطرة وتحتاج الى عمليّة تقطيب.

مع ذلك، فقد كان على الكاهن الجليل أن يُعنى أيضاً بالرجال والنساء، ممّن ظهر أن إصابتهم أخطر من إصابة الأطفال من جرّاء الهزّة.

لقد استفاد الكاهن من خبرته السابقة، فما لبث أن اكتشف جانباً لمنزل متهدّم جزئياً حيث تمكّن من إيواء المصابين. كانت قطع من السَّقف تحميهم من الشّمس، كما خُصِّصت لأطفال نيڤادا بقايا حجرة في أقصى زاوية ممّا كان منزلاً فاخراً.

كانت دزينة من الجرحى الصغار ممدّدة على الأرض، فيما واحد أو اثنان ينامان على فراش تمّ سحبه من بين الأنقاض. أما الآخرون فما كانوا يملكون سوى قطعة من الثياب أو بعض سعف النخل تقيهم من الغبار.

وكان الغبار آفة الآفات. فقد كان يتسلّل الى العين والحلق، فيلتصق بالجراح بحيث يصعب تنظيفها، وهو أمر ضروري لوضع الضمادات عليها.

كان الأطفال جميعهم يبكون من الخوف أو الألم، غير أن الضجّة التي كانوا يُحدثونها كانت أخفّ من الضوضاء الناجمة

عن أصوات النائحين على ضياع أرزاقهم أو أحد أفراد عائلتهم.

ظنّت نيڤادا في بادىء الأمر أنه سيكون من السّهل إقناع بعض النساء بمساعدتها، لكنّها سرعان ما لاحظت انّ الكارثة قد أربكتهنّ وأثّرت على أعصابهنّ، فلم يعد يُنتظر منهنّ منفعة تُذكر. والحقّ يُقال إنّ دموعهنّ وأعصابهنّ المتوتّرة لم تكن إلاّ لتزيد من اضطراب الأطفال. لذلك، طُلب منهنّ البقاء خارج المستشفى المرتجَل، وهو ما تولاّه أندرو فرايزر الذي يتكلّم لغة أهل البلد.

ثمّ، شيئاً فشيئاً، وقد أنهكتهنّ الضجّة أو الغبار الخانق رحنَ يترنّحن في صمتٍ تقطعه بعض الشخرات المتفرّقة.

وعندما قُيّض لنيڤادا التفكير في تايرون ستروم، إفترضت انه يسحب الجثث المطمورة تحت المنازل المنهارة وكتل الصوّان التي انفصلت عن الجرف الصّخري.

وتضاعف عدد الذين لم يعد ينفع فيهم أي علاج. فكانوا يُرصَفون في ظلال شجر البلح، ثم يُغطّون بأول قطعة قماش يتمّ العثور عليها. ولكنْ، كان هناك أيضاً كثيرون من الغائبين عن الوعي، تمكّن أندرو فرايزر من إنعاشهم بفضل ما له من خبرة.

واشتدّت وطأة الحرارة بعد الظهر، إلاّ أنّ الرجال الذين كانوا يفتّشون تحت الأنقاض بإمرة تايرون ستروم استمرّوا في عملهم.

لم تتورّع نيڤادا عن التفكير في أنّهم قد يتوقّفون عن أي

نشاط يقومون به لو لم يكن تايرون ستروم موجوداً لحثّهم وتشجيعهم.

وحلّ الظهر، ثمّ تقدّم الوقت ولم تصل أيّة مساعدة من القرى المجاورة.

ـ لقد أرسلتُ أحدهم الى تزنيت مع لائحة باحتياجاتي، قال الأب فرايزر لنيڤادا التي راحت تطالبه بمزيد من الضمادات. لم أكن أملك سوى العدّة الطبية المتواضعة التي أحملها معي دائماً، لكنّها غير كافية بتاتاً في كارثة كهذه.

ـ إنّ الأطفال الذين أسعفتهم هذا الصباح سوف يحتاجون الى ضمادات جديدة، قالت نيڤادا بإصرار.

وضحك الاسكتلنديّ.

ـ أخشى أن يكون عليهم الإنتظار، أيتها الشابّة، بيد أنكِ أنجزتِ عملاً جيداً. لا بدّ أنك تشعرين بالإرهاق.

ـ بل أنا عطشى للغاية، اعترفت نيڤادا.

أعطاها قربته المصنوعة من جلد الماعز. وكان الماء فيها أكثر ملوحة ومرارة من الذي شربته في الواحة.

ـ أظن ان السيّد ستروم سوف يجد لك شيئاً تأكلينه فيما بعد.

ـ لست بجائعة، أجابت نيڤادا. أودّ فقط لو أن بإمكاني تقديم المزيد من العون. وأرغب، متى أُتيح لكَ ذلك، في أن ترى إن كنتُ شددتُ الضمادات جيداً، فليس لي كبير خبرة في هذا المجال.

ـ لقد أحسنتِ صنيعاً، أجاب أندرو فرايزر.

ولاحت من نيڤادا ابتسامة رضىً. كان ذلك أفضل إطراء يمكن توجيهه إليها.

في هذه اللحظة، هرع ولد صغير نحوهم يتكلّم بصوت متهدّج.

- ماذا في الأمر؟ سألت نيڤادا.

- السيِّد ستروم يبلغنا أنهم عثروا أيضاً على دزينة من الأشخاص أدرك الموت غالبيّتهم، غير أنه سيتمّ إحضار الآخرين إلينا في غضون دقائق.

- وماذا نفعل إن نفدت منا الضمادات؟ صرخت نيڤادا.

ثمّ، خطرت لها فكرة مفاجئة.

- الحَيْك الذي ألبسه سميك، لكنّه نظيف على الأقل. قد يكون بإمكاننا تقطيعه ضمادات صغيرة.

- اقتراح رائع، آنسة ڤان أردِن، عليكِ بالمقصّ.

جلست نيڤادا على الأرض وشرعت في عملها.

كانت الشمس تميل الى الغروب متوهِّجةً النور عندما خرج تايرون ستروم من كومة من الرَّدم والحجارة، وسلك ببطء طريق المنزل المهدَّم الذي يقوم مقام المستشفى.

كان الكاهن يغطّي وجه امرأة مسنَّة فارقت الحياة لتوّها بالرغم من كل جهوده، عندما ظهر تايرون ستروم.

- لا أظنّ أنّنا سنعثر على أناس آخرين. ولا بدّ أن التَّعسين الذين ما زالوا تحت الأنقاض قد زهقت أرواحهم في الوقت الحاضر. كان يمسح جبهته بظاهر يده، مخلِّفاً آثاراً على شكل ثلوم من الغبار الرماديّ الملتصق بوجهه.

كان يبدو متعباً فناوله أندرو فرايزر قربته قائلاً:

- لا أدري ماذا كنّا فعلنا بدونك، سيِّد ستروم.

- أظن أن سكان سَكجينا محظوظون بأننا هنا معاً، أجاب تايرون ستروم.

ثم نظر الى الجرحى الممدَّدين على الأرض وأضاف:

- لولاكَ لمات غالبيّة الجرحى.

- نعم، فمن حسن الحظّ أنني كنت في الجوار، قال الاسكتلنديّ. فالربّ هو الذي قاد خُطاي الى هنا.

- آمين، ختم تايرون ستروم، طارفاً بعينيه. هل أرسلتَ بطلب اللوازم من تزنيت؟

- نعم. أظنّ أنّي سأحصل غداً صباحاً على أكثر ما يلزمني. أما الآن فينبغي أن تعود الى بيتك طالما الليل لم يهبط. فأنا بإمكاني الآن تدبّر أمري بمفردي. وشكري الجزيل للآنسة ڤان أردِن.

ونظر تايرون ستروم حوله.

- أين هي؟

- إنها مع الأولاد. لقد أبدعتْ حقّاً. لا أدري ماذا كان حلّ بي لو لم تكن هي الى جانبي.

دخل تايرون ستروم الى عمق المنزل المتداعي.

كانت بعض الأمّهات ممدَّدات بالقرب من أطفالهنّ، أولئك اللّواتي هدأ روعهنّ بعض الشيء بحيث سُمح لهنّ بالبقاء بالقرب منهم دون إزعاجهم.

ووجد تايرون ستروم الفتاة في الناحية الأخرى من الغرفة.

www.rewity.com/vb

كانت مستلقية على الأرض مُسندةً رأسها الى بقجة من الخرق. كان قفطانها الأبيضُ أصلاً قد تلوّث بالغبار والوحل ولطخته بقع من الدم.

كانت تضمّ الى صدرها الأيسر طفلاً معصوب الرأس في حين تضع يدها اليمنى على كتف طفلة في السادسة من عمرها تلتصق بخاصرتها.

تأمّلها بضع لحظات أيضاً. ثم، أخذ الطفل من ذراعيها، ووضعه باحتراس على فراش، بالقرب من طفل آخر أسلم عينيه للنوم.

واستيقظت نيڤادا عندما أراد تايرون ستروم زحزحة الطفلة.

- ماذا... هناك؟ سألت.

- لم يعد بإمكانك القيام بأيّ شيء هنا، أجاب. سوف أصطحبك الى المنزل.

- أواه!.. أنا نَعِسة.

- لا غرابة في ذلك. فقد عملتِ بجهد ولا أشك في أنك تتضوّرين جوعاً.

ولاحت على وجهها ابتسامة غامضة، كما لو أنّها لا تفهم كلماته تماماً. رفع الطفلة ووضعها برويّة مكان نيڤادا، جاعلاً خدّها على البقجة، فلم تحرّك ساكناً.

كانت نيڤادا تنتظر. أحاط كتفيها بذراعه وقادها نحو الكاهن.

- سوف أعود غداً صباحاً، قال تايرون ستروم، فالآنسة ڤان أردِن وأنا نودّ أن نَهبَ شيئاً لإعادة بناء هذه القرية.

هل بإمكانكَ إعلام المسؤولين بذلك؟

- إنّني أمضي وقتي بشكرك، سيِّد ستروم، بحيث تعوزني الكلمات. لكنْ إعلَم انَّ شكريَ لكَ غير محدود.

- إننا في عملنا هذا نقدّم الشكر لله. فالآنسة ڤان أردِن وأنا نجونا منذ وقت من خطرٍ من نوعٍ آخر، ووجدنا هنا فرصة للتعبير عن شكرنا.

- أنا لا أرفض أيّة هبة، قال الكاهن. هيّا، خُذ هذه الشابة الى المنزل فهي تستحقّ الراحة بحق.

لقد لاحظ تايرون ستروم، وقد كان لا يزال ممسكاً بها من كتفيها، أنّها في حاجة ماسّة الى النوم حتى تستعيد وعيها ونشاطها.

كان الولدان لا يزالان بالقرب من الجوادين. فتوجّه تايرون ستروم الى اكبرهما سناً وسأله إذا كان يُحسن امتطاء الجياد.

ونال الولد الآخر بعضاً من المال مكافأةً له، ممّا أدخل الى قلبه فرحاً لا يوصف. ثمّ وضع تايرون ستروم نيڤادا على السَّرج أمامه، وضمّها بذراعه كي لا تقع، وتوجّه نحو ڤلفراؤوت.

قبل أن يصلا الى القرية كان الليل قد أرخى سدوله. بيد انّ تايرون ستروم لم يرتبك في الاهتداء الى طريقه، بفضل النجوم التي كانت تضيء لحظةً بلحظة. وما لبثت أنوار القرية الصغيرة أن قادت خطاه بشكل أوضح.

لم تفتح نيڤادا عينيها إلاّ عند باب القصبة. ومرّةً جديدة، احسّت بالأمان الذي شعرت به مع تايرون ستروم عندما

انتابها الخوف الشديد من وقوعها أسيرة في أيدي رجال الشّيخ.

«كيف تمكّنتُ من النوم وأنا بين ذراعيه، ورأسي ملقىً على كتفه؟» تساءلت بدهشة، هي التي طالما تمنّت أن يشدّها إليها، وتحقّق حلمها دون أن تعي ذلك. كادت تبكي حنقاً.

سمعت أصوات الترحيب يطلقها خدم القصبة. فهم الذين أيقظوها.

عَبَر تايرون ستروم بوّابة المدخل الرئيسي، وما لبثا أن ادركا الباب الداخلي الذي يفضي الى المنزل.

ـ نحن... في منزلنا، تمتمت.

ـ نعم، في منزلنا، أجاب.

قوّم جلستها على السَّرج قبل أن يترجّل، ثمَّ حملها بين ذراعيه ومضى بها الى غرفتها.

ـ بإمكانك النوم بعد أن تتناولي شيئاً من الطعام، قال امراً. ولكنْ، إغتسلي قبل ذلك وتزيَّني.

وخرج بعد أن وضعها على حافة السرير. بعد لحظات، وصلت خادمة تحمل بين يديها ماءً ساخناً ومناشف نظيفة.

ونهضت نيڤادا، متعبة، تشعر وكأن كلّ عمل تقوم به يحتاج الى جهد جبّار. وأطلقت صرخة هلع عندما رأت نفسها في المرآة، فاستفاقت تماماً. كان وجهها رمادياً تماماً من جرّاء الغبار، وشعرها المتطاير في الهواء، لا يزال مربوطاً بخرقة عثرت عليها صدفة. وكان من الصعب التعرّف الى قفطانها لكثرة البُقَع والأوساخ العالقة به.

بعد ساعة من الزمن، لحقت بتايرون ستروم الى الفناء الصغير. لم يكن شعرها قد جفّ بعد، ولم يكن فقطانها الجديد يشبه في شيء الثوب المتّسخ دماً الذي أمرت الخادمةَ بإتلافه.

نهض تايرون ستروم حالما شاهدها، ووضع في يدها كأساً من النبيذ قبل أن تنبس ببنت شفة.

ـ لو شربتُ قبل أن آكل، لَثملتُ، قالت.

ـ لا يقلقنَّك الأمر. فسوف أحملكِ إلى سريرك.

فأغرقت في الضحك واحمّر خدّاها وهي ترشف كأسها. ثم ما لبث العشاء أن حضر فأحسّت نيڤادا بتعبها يتضاءل كلّما تناولت شيئاً من الطعام. وبالرغم من شعورها بالتعب، إلاّ أنها لم تعد مُنهكة الى حدِّ الإنهيار.

تناولا طعام العشاء بما يشبه الصمت. وعندما انسحب الخدم، قال تايرون ستروم:

ـ إذهبي الآن واستريحي. لكنني أوّد قبل ذلك أن أقول لكِ إنك كنتِ رائعةً.

كان في صوته نبرة مميَّزة فراحت نيڤادا تتأمّله بدهشة. وعندما التقى نظرهما، شعرت بالخجل وأشاحت بوجهها.

ـ كنت خائفة... خوفاً شديداً... من ارتكاب... حماقات. لكنّ الأب فرايزر أعرب عن سروره بي.

ـ عن سروره العظيم، فعلاً. لقد أكّد لي انّه لم يكن ليفعل ما فعله من دونك.

ـ ولا من دونكَ! فأنتَ الذي أنقذتَ هؤلاء الناس كلهم. لو لم تكن هناك، لكانوا انتحبوا دون القيام بأي شيء.

ـ الناس البدائيّون هم هم أينما كانوا على الكوكب. إنّهم بحاجة الى مرشد يأخذ بيدهم. وعندما يعثرون عليه يحسنون التصرّف بشكل رائع.

ـ نعم إنك لهم ما تقول، أنت المرشد، قالت نيفادا بصوت واضح.

ـ لقد حرّرت الكبار، بيد أن الأطفال نجوا من الموت بفضلك.

ـ كانوا يثيرون الشفقة حقاً. ثمّ إن بعضهم برهن على الكثير من الشجاعة.

اغرورقت عيناها بالدّمع وهي تتكلّم. وظنّت أنّ ذلك يعود الى التعب الذي أصابها. ثمّ، ذلك الطفل الذي مات بين ذراعيها، لن تنساه أبداً. لقد كانت متأكّدة من ذلك. وأشاحت بوجهها، تودّ إخفاء دمعها. لكنّ تايرون ستروم رأى الدمع ممّا سبّب لها بعض الحرج.

كان يتفرّس فيها بحدّة. ولمّا حارت في أمرها، نظرت نيفادا الى يديها، ففوجئت بأن أظافرها مكسورة وبشرة أصابعها في غاية الخشونة.

ـ إذهبي الى النوم، قال تايرون ستروم. سوف نتحدّث في كل هذا غداً.

ـ في كلّ هذا؟

ـ سوف نتحدّث عنك، بالأحرى.

كانت مصعوقة. نظرت في عينيه مباشرةً، فرأت فيهما تعبيراً جعل قلبها يخفق بعنف، كما الطبول يقرعها الموسيقيّون لإرقاص

الناس. وللحال، عادت بها الذاكرة الى راقصة «الغدرة»، وكأن يداً باردة تُمسك بقلبها.

تايرون ستروم يرغب في محادثتها! كانت تشك تماماً في أنه طلب ذلك ليقول لها ما تريد سماعه. إذ كان يحتقرها، وهي تعرف ذلك تمام المعرفة. ثمّ إن اهتمامه مركّز على مكان آخر. لقد تذكّرت بوضوح غريب الراقصة الشابّة وحركات ذراعيها الأفعوانيّة، وجسدها المتموّج، وعينيها النصف مُطبقتين، وشفتيها المنفرجتين وشعرها الأسود الحالك الطويل منسدلاً على ثدييها العاريين.

وكي تتخلّص من هذا السّراب، قرّرت أن تنهض.

ـ أنتَ على حق، قالت أخيراً بصوت املَت أن يكون طبيعياً، فأنا... متعبة جداً. عِمتَ مساءً.

كان هو قد نهض أيضاً، وفي اللحظة التي همّت فيها بالإبتعاد، أخذ يدها في يده ورفعها الى شفتيه ببطء.

ـ نامي جيداً نيفادا. وشكراً لكِ من كلّ قلبي.

ند استيقاظها، لاحظت نيفادا أن الحرّ يخيِّم على غرفتها وأن النهار قد تقدّم اكثر مما توقّعت.

كانت الشمس ترسل أشعتّها الذهبيّة عبر شقوق الستائر المنفرجة قليلاً التي لم تكن تحرّكها أيّة نسمة هواء كما كان يحصل في ساعات الصباح الأولى.

وتقلّبت، إذ اكتشفت أنها نامت عميقاً وبدون أحلام. ثمّ، صدرت منها صرخة تعجّب، بعد أن نظرت الى ساعة الحائط.

كان الوقت قد تعدّى الظهر.

جلست في سريرها ورنّت جرساً صغيراً من الفضّة. فما لبثت الخادمة أن حضرت.

ـ الوقت متأخر، كثيراً! قالت نيفادا وهي تشير بإصبعها الى ساعة الحائط.

ـ قال سيّدي إنه ينبغي عليك أن تنامي، أجابت بلُغتها.

وفهمت نيفادا، لكنها سرعان ما أسفت لأن أحداً لم يوقظها. فما من شك في أن تايرون ستروم قد ذهب الى سكجينا من

دونها، في حين أنّها ترغب أكيدة في مرافقته لرؤية ما تستطيع عمله بعدُ لأولئك المنكوبين الصغار.

عادت الخادمة التي غادرت الغرفة، ومعها طعام الفطور.

فشرعت نيفادا في الأكل، أسفةً مع ذلك لكونها لا تفطر، كما في كل صباح، برفقة تايرون ستروم في الفناء الصغير.

كان اهتمامها مركّزاً في البداية على إقناع نفسها بكرهها له لتعود فتكتشف أنّ فطوراً تلتهمه برفقة رجل، يمثّل شيئاً مميّزاً بالنسبة لها.

ثم، شيئاً فشيئاً، تجمّل طعام الفطور هذا بنكهة خاصة، بفضل جمال السّاحة الصغيرة التي راح يكنسها بحنان نسيمٌ يهبّ من الجبال، وبفضل شذى الزهور وزقزقة العصافير المغربيّة الصغيرة.

والحال أنه في هذا الصباح بالذات، بعد أحداث اليوم الماضي، وبينما يزدحم على شفتيها ألف سؤال وسؤال، تناول تايرون ستروم طعام الفطور بمفرده وانطلق الى سكجينا من دونها!

إلاّ أنها اعترفت في الوقت نفسه بأنها لم تسترح بعدُ تماماً. فنهار البارحة كان طويلاً، وعديدة كانت الانفعالات.

هنا، تذكرت بوضوح الهلع الذي أصابها عندما مات الطفل الذي كانت تضمّد جراحه، وهي لا تملك سوى الإقرار بعدم قدرتها على إنقاذه.

لقد حملته الى أندرو فرايزر بعد أن أغمض عينيه وأسلم

الروح. فعاين الكاهن الجرح العميق في جبهته والذي سبّبه على الأرجح سقوط الحجارة.

ـ لا حيلة لنا في ذلك، أيتها الشابّة. الصغير عاد الى باريه.

ثمّ خرج فوضع الجثّة الصغيرة بالقرب من الجثث الأخرى التي تنتظر دفنها. ورجعت نيفادا فيما بعد الى الأحياء والدمع يبلّل خدَّيْها.

كان من غير المنطقي ربّما أن تبكي لفقدان حياة في حين سقط قتلى كثيرون، لكنّها شعرت بمسؤوليتها في ذلك بشكل من الأشكال. أحسّت بأنه كان عليها القيام بشيء ما، إلاّ أنها لم تعرف ما هو.

وإذ انتهت من فطورها، تمدّدت نيفادا من جديد وأشارت على الخادمة بإزاحة الستائر.

دخلت الشمس الغرفة بغزارة، جالبةً معها الدفء أيضاً. غير أنّ نيفادا لم تكن ترغب إلاّ في رؤية روعة الهضاب الصوّانية المرتفعة تحت السماء الزرقاء.

«جنّة صغيرة»، كان تايرون ستروم يقول في تحديد الوادي. كان ذلك صحيحاً فعلاً بالنسبة اليه والى الآخرين الذين يعيشون في هذا المكان. غير أنها لم تكن تملك مكاناً لها هنا.

«سوف نتحدّث عنك»، كان قد وعدها عشية البارحة. ولتوّها، أقلقها ما قد يعنيه هذا الأمر. وما من شك في أنه كان سيُعلمها بأنها تستطيع العودة الى منزلها.

لم تكن تعلم لماذا هي أكيدة من ذلك تمام التأكيد. كان ذلك إحساساً، كمثل نهاية فصل من فصول كتابه، أو ربما نهاية

كتابه. فبشكل من الأشكال، كان اجتماعهما يتّجه نحو الانفضاض.

كان قد سئم، على الأرجح، من العقاب الذي اختاره لإنزاله بها. إما لأنها لم تعد تثير اهتمامه، أو لأنّه يريد الاختلاء بنفسه كما في كلّ مرّة يأتي بها للمكوث في قصبته الورديّة.

على كل حال، كانت نيفادا تنتظر رجوعه بفارغ الصبر، وتخشاه في الوقت نفسه.

بيد أنها ما لبثت أن نامت من جديد، بعد أن انهكتها أفكارها المشوّشة والتعب المضني الذي هدّ قواها. كان الحرّ قد خفّ حدّةً عندما فتحت عينيها. وكان الوقت قد ناف عن الظهر.

رنّت الجرس الصغير بقوّة. ونهضت على عجلة عندما دنت الخادمة منها، فاغتسلت وتزيّنت وارتدت ثيابها بسرعة قياسيّة. كانت تخشى كثيراً أن ينعتها تايرون ستروم بالخمول.

والحال أنها عندما ولجت الى الصالون، لم تجد أثراً يدلّ على وجوده. إقتربت في الحال من مكتبه لتُلقي نظرة على مخطوطته التي لم تعمل عليها منذ يومين تقريباً.

فلو كان انتهى منها، لما عادت هي تنفعه في شيء. وفجأةً، رغبت في لمس أشيائه الخاصة. فراحت تمرّر أصابعها على مسكة الريشة التي يستعملها للكتابة؛ على مرفقة الورق من الجلد الأحمر، وهو الجلد نفسه المصنوعة منه جزمته النصفيّة التي يحتذيها؛ كما لامست المقلمة، ودفتر الأوراق وغيرها من الأشياء الصغيرة التي يحفل بها مكتبه.

كانت تعرف تماماً ان لكلّ شيء معنى خاصاً بالنسبة إليه.

وكانت تحبّ كلّ هذه الأشياء التي تشكّل نوعاً ما جزءاً من شخصيّته.

شعرت نيقادا باضطراب غريب، فخرجت الى الفناء الصغير وقرب النافورة، أصغت الى خرير المياه وكأنها تتحدّث إليها بسقوطها المتكرّر في الحوض الحجري.

تذكّرت أنها سخرت برومنسيّة المكان، والحال أنها صارت تعتبره في الوقت الحاضر أروع الأمكنة في العالم. «ركن صغير للمُغْرَمين»، فكّرت، وصعد الإحمرار إلى خدّيها إذ فكّرت في هذا الأمر.

هي التي غالباً ما هزئت بالمُغرَمين! هي التي غالباً ما سخرت بخبثٍ من الذين باحوا لها بحبّهم ورجوها الاقتران بهم، كداقيد مثلاً! «كيف كان لي أن أعرف ما يشعرون به؟» سألت نفسها.

كانت حتى الآن تفكّر في الحبّ كمَيْلٍ عذب وعاطفي. والحال انه اقترن اليوم، بالنسبة إليها، بالألم والقلق المتنامي ساعة بعد ساعة، يوماً بعد يوم، بحيث أمسى احتماله أمراً لا يُطاق تقريباً.

كانت في حيرة من أمرها. وكانت تعلم أن حياتها ستكون رهيبة لو استحالت عليها رؤية تايرون ستروم أو اختفى من وجودها.

كان كلّ كيانها متوتّراً. كانت ترصده وتدعوه الى الإسترخاء، وحين لم تعد تحتمل، قفلت راجعة الى الصالون فجلست أمام النافذة، وسمّرت نظرها باتجاه الوادي.

كانت الهضاب الوردية مبقّعة باللون الذهبي. وكانت الظلال التي تولّدها الشمس الغاربة أرجوانيّة كلون الجَمْشَت المختبىء في الجبال.

«إنّه أجمل مكان في العالم»، فكّرت نيقادا «ولو رحلتُ، فقد لا أعود إليه أبداً!» ذلك ان تايرون ستروم كان وحده القادر على مساعدتها على عبور هذه الصحراء المُحصبة بكل أمان. وحده كان يحظى بهذا الإمتياز الخاص، الذي قد يشاركه فيه المحترم أندرو فرايزر، في حين بدا لها أن الأوروبيّين الآخرين محرومون من هذه المنطقة من المغرب.

كانت الشمس لا تزال تُرخي أشعتها، مذهّبةً سطوح القصبة ومغلّفةً الوادي ببهاء ورديّ لا يوصف.

وفجأةً، شاهدته. كان تايرون ستروم يرتقي المنحدر على ظهر حصانه، تماماً كاليوم الذي ادركت فيه انها تحبّه.

أما الآن، فلم يكن ثمة مجال للشك: فالنور الذي كان يحيط به لم يكن مردّه الى الشمس فحسب بل خصوصاً الى الهالة التي كانت تشعّ من شخصه الحميم.

كان حصانه يُسرع في مشيته، كما لو أن الفارس يستعجل الوصول الى منزله. وتركت نيقادا النافذة بحذر مفضّلةً الجلوس على الأريكة.

سمعت صوته يتوجّه الى الخدم. ثم دخل. كانت نيقادا عاجزة عن التفوّه بأية كلمة لكثرة خفقان قلبها. لم تتمكّن إلاّ من النظر اليه؛ كأنّ عينيها الخضراوين تأكلان وجهه أكلاً.

ـ هل استرحتِ تماماً؟

وابتسم وهو يعبر الصالون ليضع رزمة صغيرة على المكتب.

- وددتُ حقاً... لو ذهبت بصحبتك.

وشعرت نيقادا بأنه من الخطأ ان تتكلّم بلهجة العتاب، بيد أن الإهانة التي أحسّت بها طيلة هذه الساعات التي قضتها وحيدة، كانت تشبه الجرح.

- كنتِ متعبة جداً، قال، ولم يبقَ هناك ما تقومين به.

- هل أنتَ متأكد من ذلك؟

- تمام التأكيد. لقد دفن اندرو فرايزر الأموات عند الفجر، ووصلت المواد الغذائية والطبيّة من تزنيت كما أمكن مواكبة الجرحى الخطرين الى المدينة.

- والـ ... أطفال؟ سألت نيقادا بقلق.

- غالبيتهم تعافوا كما الأعجوبة تقريباً. وقد عادوا مع ذويهم. كان هناك خمسة أيتام عملتُ على ايجاد مأوى لهم، فقد وافق قائد تزنيت على الإهتمام بهم.

وتقدّم تايرون ستروم فجلس بالقرب من نيقادا، على الأريكة إيّاها.

وأحضر الخادم قدحاً من الشاي بالنّعناع. فشرب تايرون ستروم قبل أن يتابع:

- وعدتُ بأن أضع تحت تصرّفهم مبلغاً من المال. هل ترغبين في المشاركة؟

- بالتأكيد، نعم، قالت نيقادا بحيويّة. أنت تعرف أنّ ذلك أصدق مُناي.

- توقّعتُ هذا، أجاب. والحقّ يُقال إن المبلغ اللازم ليس

كبيراً. فالدولار الأميركي والليرة الإنكليزيّة يساويان أكثر بكثير من العملة المغربيّة.

- تعرف أنّني لا أبه بالمبلغ الذي عليّ صرفه.

- نعم، هذا أيضاً ما تبادر الى ذهني.

أقبل خادم ليأخذ القدح الفارغ وسأل تايرون ستروم إذا كان يريد شيئاً آخر، فهزَّ هذا رأسه بالنفي.

ومن جديد، صار تايرون ستروم ونيقادا بمفردهما. فقام هو لتأمّل الوادي.

- لقد اصطحبتُ الأب فرايزر معي، قال.

- هل سيقيم هنا؟

- لا. إنّ قائد المدينة صديق له، فقد أنقذ له ابنه. وهو يحاول إقناعه بأن يوفد الى سكان سكجينا مهندسين لإعادة تعمير قريتهم. فأهل طفراوت يتقنون تشييد البيوت أكثر من سكان الجنوب المغربيّ كلّهم.

- أودّ ان أقدّم لهم مساعدة ماليّة، قالت نيقادا.

- فكّرت في ذلك. وأنتِ تذكرين أنني تحدّثت الأمس في الأمر مع المحترم فرايزر.

- نعم، بالفعل.

وتابعت الكلام بحياء بعد فترة من الصمت.

- أحبّ أن أرى أي نوع من القرى سوف يتصوّره المهندسون هنا. فطبيعة الأرض والمنظر مختلفة عمّا هي عليه في سكجينا وكذلك الألوان.

ـ وأنا أيضاً، بي فضول لمعرفة النتيجة. ربّما تعودين الى هنا عندما ينتهي كلّ شيء

ولزمت نيڤادا الصمت فأضاف تايرون ستروم:

ـ البارحة مساءً، قلتُ لك إننا سنتحدّث عنكِ. قد يكون الوقتُ حان.

ـ ماذا عندك... تقوله لي؟

ـ ما تودّين سماعه، بالتأكيد. أي أنّ بإمكانك العودة إلى ديارك.

وحبست نيڤادا أنفاسها. ثمّ تمتمت بصعوبة وبصوت بدا لها غريباً.

ـ ما الذي جعلك.. تقرّر... فتسمح لي بذلك؟

عاد وجلس بالقرب منها.

ـ هل عليّ إبلاغك أنّ الدرس، لا بل العقاب قد انتهى. لقد اجتزتِ الإمتحان النهائي بتفوّق تام.

ـ هل... تظنّ ذلك حقاً؟

ـ بناءً على ما قمتِ به البارحة فلا بدّ وأن أكون ناكراً للجميل بحقّ وغير عادل لو أنني لا أمنحك حريتك.

ـ ولمّا صمتت نيڤادا، أضاف:

ـ سألتِني لماذا اضطلعتُ بدور إله تجاهكِ. لقد كان السؤال ممتازاً ويستحقّ جواباً.

تفرّس فيها، وفي عينيه نظرة تساؤل، كما لو كان ينتظر أن تتكلّم. ولمّا لزمت الصمت، قال بإصرار:

ـ الأمر لا يهمّك؟

ـ بلى... بلى... بالتأكيد.

ـ إذاً، هاكِ الجواب: بالرغم من الغضب الذي أثرتـه فيَّ، فقد أكدَّ لي حدسي انك تستحقّين الإنقاذ من نفسك.

ـ وهل تعتقد أنّ هذا... ما حقّقتَه؟

كان في صوتها نبرة خفيفة من التحدّي.

ـ نعم، أجاب بهدوء. عندما رأيت البارحة الدموع تبلّل خدَّيكِ، وعندما رأيتك نائمة وذلك الطفل بين ذراعيك، أيقنتُ أنك امرأة بحق، مهما تكن جهودك لانكار ذلك!

ـ هل من العدل أن تحصل هزّة أرضية لإثبات صوابيّة رأيك؟

ـ لو لم تحصل هـزّة أرضية، لحصـل شيء آخر، أجـاب تايرون ستروم. فالذهب كان موجوداً، ولكنْ، وجب علينا الحفر عميقاً للعثور عليه.

نهضت نيڤادا بدورها وجاءت تقف أمام النافذة.

ـ والآن... تعيدني الى دياري... الى أيّة حياة، الى أي نوع من الوجود؟

ـ سوف تعودين الى حياتك الماضية، لكنني أعتقد أنك ستنظرين اليها بعينين جديدتين. كذلك، سترينَ الناس بشكل مختلف.

ـ وهل أنت أكيد من... رغبتي في ذلك...؟

بالرغم من أنها لم تلتفت، فقد شعرت بأنه يهزّ كتفيه.

وصمت فترة طويلة قبل أن يجيب.

ـ سوف يكون لك الكثير من الحظوة، نيڤادا، فلن يتغيّر شيء

في هذا المجال، غير أنك ستكونين أكثر لطفاً مع الشباب الذين سيقعون في هواكِ، إذ تأسرهم عيناك الواسعتان الخضراوان وشعرك الملتهب.

- وإن هم... لم يسحروني؟

كانت الكلمات تمرّ بصعوبة من بين شفتيها.

- ماذا تريدين من الحياة، نيفادا؟ عمّا تفتّشين؟

كان صوت تايرون ستروم يدوّي في صمت الصالون الهادىء.

كان هذا السؤال هو نفسه الذي طرحته نيفادا على نفسها، وهي تعرف تماماً الجواب عليه. بيد أنها كانت مجبرة على الاحتفاظ به لنفسها.

- أنا... أنا أريد... أن أبقى هنا... في المغرب. ربّما بإمكاني... أن اشتغل مع الأب فرايزر... قد افتتح ميتماً للأطفال، كالمياتم التي نجدها في اوروبا. كانت تتكلّم بتردّد. ثم، فهمت فجأة نبرة التعجّب في صوت تايرون ستروم.

- هل أنتِ جادّة في ما تقولين؟

- نعم، بكل تأكيد! أعرف أن هذا ما أريده. لا أريد... ان أعود الى دياري... لا أرغب... في العودة... فلا عمل لي هناك.

- ماذا تقصدين بذلك؟

والتفتت.

نظر اليها، حادّ القسمات، فحسبت انّه يرغب في ثنيها عن مشروعها. كان بمقدوره منعها من البقاء في المغرب أو على الأقل وضع الصعوبات أمام تحقيق هدفها. وهكذا، إذ شعرت بأنّ

عليها إقناعه بصدقها، حاولت شرح موقفها بشكل يائس:

- كيف السبيل... الى إفهامك؟ انا اعرف رأيك فيّ... بيد اني تغيّرت.. أُقسم لك... ليس هراءً ما اقول... انتَ تظنّ انّ قراري... نزوة جديدة لامرأة غنيّة... ولكنْ لا.. فالأمر مهمّ بالنسبة لي.

- هل يُعقل انّكِ تغيّرتِ الى هذا الحدّ بين ليلة وضحاها تقريباً؟

- قد لا يكون التحوّل جذريّاً كما يبدو، أجابت نيفادا. ربّما حصل بكل بساطة لأن الفرصة لم تُتَح لي بعدُ كي أعمل أي شيء غير الذي علّموني إيّاه. وقد علّموني كيف اتصرّف في المجتمع الراقي، وكيف أتسلّى وأبذّر الكثير من المال على نفسي.

ولمّا بدا عليه عدم الإقتناع، اضافت:

- ... سوف... اخبرك طرفة، قد تُفهمكَ لماذا أنا على ما أنا عليه.

ونظرت إليه نظرة توسّل.

- كُلّي آذان صاغية، قال بعد صمت.

- أنا لا أُفتّش عن... أعذار، بل سأكتفي بالرواية. لن يفهمني أحد سواك... ثمّ قد لا تفهمني أنت أيضاً.

- سوف أحاول، على كلّ حال، قال.

- كنتُ في الثامنة من عمري عندما تُوفّيت والدتي. ولمّا كنتُ قد عشتُ عمري كلّه بالقرب منها، فإن غيابها، على ما أعتقد، قد أثّر فيّ أكثر ممّا لو ربّتني حاضنات برفقة أطفال من عمري. ولزمني وقت طويل لأفهم أنّني فقدتُها الى الأبد.

وسكتت نيفادا، إلاّ أنّ كلماتها كانت تثير صدى محزناً ودراماتيكياً يقول لتايرون ستروم كم لقيتْ من عذاب، كمثل طفلة فقدت رشدها تماماً لموت كائن عزيز.

- وبفقداني والدتي، أضافت نيفادا، حوّلتُ حناني الى والدي. كنتُ أعبده وأرغب من كل قلبي في أن يحبّني هو أيضاً. كنت أعدّ الساعات التي يكون فيها غائباً، وأعمل المستحيل لأقضي أكبر وقت ممكن معه.

والتفتت نيفادا تتأمّل الوادي مرّة أخرى، ثم تابعت حديثها:

- وذات مساء، كنت أهمّ بدخول مكتبه بتهوّر لأعبّر له عن سروري برؤيته واشتياقي اليه، عندما سمعته يأمر إحدى الخادمات: «أحضري لي شيئاً أشربه، وأبعدي عني هذه الطفلة، بحقّ السّماء. فلا وقت لديّ للإهتمام بها!»

أصغى تايرون ستروم، متأكّداً من أنها لم تُخبر أحداً قبله بهذه الحادثة. وعَلِمَ من تعبير وجهها حجم الصّدمة التي سبّبتها لها.

- بكيتُ كثيراً عندما ماتت والدتي، اضافت نيفادا، بصوت خافت مضطرب، بيد أني لم أبْكِ عندما فهمت أن والدي لا يحبّني. إكتشفت فحسب أنّني وحيدة في عالم عدائي.

وسكتت أيضاً قبل أن تتابع:

- ... أنا ... أنا أفترض أن أبي كان عنده، مع ذلك، معنىً ما للمسؤوليّة، لأنه عمل بعد وقت قصير على طرد المربّية وجاء بأخرى، أصغر منها بكثير.

وضحكت نيفادا ضحكة خفيفة باردة.

- كنتُ أجدها غاية في الروعة وفاتنة جداً. كان فيها شيء من الألق والحداثة لم أكن، بالتأكيد، لأجده في مربّيتي المسنّة. فليس من العجب إذاً أنّني محضتها كامل حبّي.

- أوَلم يكن معك أطفال آخرون؟ سأل تايرون ستروم.

هزّت نيفادا رأسها بالنفي.

- لا أحد بإمكاني اتّخاذه صديقاً. لا تنسَ أنّني ابنة مليونير. وعليه، كنتُ أنتمي الى طبقة اجتماعية محدّدة، قالت مفسِّرةً بلهجة عنيفة. أواه! كان لي الحق طبعاً بالإشتراك في اجتماعات صغيرة، غير أني لم أكن أشعر أبداً بأنني في المكان المناسب؛ فالراشدون كانوا يشفقون عليّ بإفراط بينما كان الأطفال ينظرون إليّ بحذر.

وصدرت عنها تنهيدة خفيفة.

- ... لم يكن عليهم أن يتحمّلوا المضايقات المفروضة عليّ: كان أحد المخبرين يتبعني اينما أذهب خوفاً من اختطافي؛ كما كان عدد من الحرّاس المسلّحين يقومون بدوريّات في الليل حول المنزل؛ فيُخضَع كلّ زائر يرغب في رؤيتي لتفتيش دقيق قبل وصوله إليّ.

- هل وصلتْ بكِ الحالة الى هذا الحدّ؟ سأل تايرون ستروم بدهشة

- بل أسوأ من ذلك... ومن المستحيل أن أصف لكَ وضعي... الذي كان غايةً في الغرابة. كنت أعرف أنني لستُ طفلة عادية... وأنني كنت غير اعتياديّة... إلاّ أن وقتاً لزمني

قبل أن أفهم لماذا يفصل بيني وبين الأطفال الآخرين شبهُ حاجزٍ خفيّ على أنه محسوس.

- ومربّيتك الجميلة؟

- نعم... بيريل ساوندرز.

ولاحظ تايرون ستروم نبرة غريبة في صوت نيڤادا عند ذكر هذا الإسم، مما دفعه إلى السؤال:

- وماذا كان الخطأ فيها؟

- هل من الضروري طرح هذا السؤال؟ كانت تجدني مزعجةً، تماماً كأبي. وأنا اليوم أفهم كم كنتُ مزعجة بسبب... ولعي وإفراطي في الغيرة وإصراري على المطالبة بها في كل لحظة.

- وهل تزوّجت؟

- لو تزوّجت لكان ذلك في مصلحتي، بلا شك. لكنّ ذلك لم يحصل. وقد قرأتُ يوماً ما رسالةً فرغتُ من كتابتها.

ومرّة أخرى، ضحكت نيڤادا ضحكة صغيرة باردة.

- كان ذلك درساً جيّداً لي! فبذلك تعلّمتُ أنّه لا يجدر بي قراءة رسائل الآخرين

- وماذا تُراها كتبتْ؟

- تحت مِرفقة الورق تركتْ رسالتها. وكانت قد كتبتها بينما كنت أطالع دروسي. ولمّا عدنا الى قاعة الدرس بعد الإنتهاء من تناول طعام الفطور، تخلّفتْ عنّي لتتكلّم مع سكرتير والدي. كنتُ غَيْرى بشكل جنوني، إذ خُيِّل إليّ أنها تحبّه أكثر منّي.

- وهكذا قرأتِ الرسالة؟

- فتحتُ مِرفقة الورق وقرأت دون تردّد. لم أعرف لمن كانت الرسالة موجّهة، لشاب ربّما، ولكنْ قد تكون موجّهة أيضاً لعائلتها. كلّ ما أعرفهُ، أنّ جملة لفتت نظري بشكل مفاجىء، كما لو أنّها كُتِبت بأحرف من نار.

- وماذا كان في تلك الجملة؟

خُيِّل لتايرون ستروم للحظة أنّ نيڤادا لن تتمكّن أبداً من تكرار ما قرأت. إلاّ أنّها استأنفت كلامها:

- مربّيتي العزيزة، تلك المرأة التي كنتُ أعبدها، كتبت تقول:

«ما كنتُ لأبقى في وظيفتي هذه لحظة أخرى لولا المال. لو يعلم الناس كم أعاني من هذه الطفلة المتباكية التي تتشبّث بي كعشب الحائط، بحيث لا أملك وقتاً أكرّسه لنفسي».

واستعادت نيڤادا أنفاسها بصعوبة قبل أن تضيف:

- ... كان في الرسالة أكثر من هذا، لكنّي لم أرغب في قراءة المزيد. وأظنّ أنّني أقسمتُ في ذلك اليوم بالذات على أن لا أحب أيّ شخص أبداً حتى لا أُصاب بأذىً كما حصل لي أولاً مع أبي ثمّ مع مربّيتي.

- أفهمكِ، قال تايرون ستروم بصوت خفيض.

- وفيما بعد، بعد أن كبرتُ قليلاً، قرّرت إيلامَ الناس بقدر ما تألّمتُ أنا. بذلتُ قصارى جهدي ليقع الرجال أسرى غرامي. ثمّ، كنتُ أظهر لهم تفوّقي بالقول إنّني لا أشعر نحوهم، ونحو الآخرين، سوى باللامبالاة.

- وتعتبرين الآن أنك تغيّرتِ؟

- أعتقد أن لكل منّا نقطة ضعف لا تلبث أن تنكشف، مهما بَذل من جهود لإخفائها أو تجاهلها.

- وهل اكتشفتِ نقطة ضعفك؟

- نعم، البارحة. فقد فهمتُ انني سأكون سعيدة أبداً... وعلى كل حال أكثر سعادة مما عليه الآن... لو قُيِّض لي أن أعيش مع أطفال.

- إذاً، لقد اكتشفتِ أن لديك حبّاً تهبينه؟

- طبعاً! لديّ حبّ أهبه، أجابت نيقادا بما يشبه العنف. إلاّ أنه كان دفيناً في داخلي منذ سنوات كثيرة. ثمّ إن اليتامى الذين لا يملكون سنداً لهم سوى الرحومين من الناس لا يمكن أن يرفضوا الحبّ الذي نغدقه عليهم طالما هم صغار السنّ.

- هل تظنّين أنك ستكونين سعيدة وراضية إن تمكّنتِ من تكريس نفسك لأطفال الآخرين؟

- هل يمكن أن نكون راضين تماماً؟ سألت بغموض. لن تعود الحياة فارغة وموحشة كالسنين الخوالي.

وسكتت فترةً طويلة، ثم أضافت، ونظرها المتوسِّل مركّز على وجه تايرون ستروم:

- ساعدني... أنتَ تعرف انني لن أتمكّن من النجاح بدون مساعدتك.

نهض وتقدّم نحوها. فراحت تتفرّس في وجهه لتعرف ما إذا كان سيستجيب لطلبها.

- عليكَ مساعدتي، قالت بحماسة. وإن أنتَ طردتَني، لما عرفتُ من أين أبدأ حياتي وكيف. زد على ذلك...

ولم تُنهِ جملتها... بعد صمت، قال تايرون ستروم:

- هل تعتقدين أنّ أباك قد يمنعكِ من القيام بما تريدين؟

- أواه! بالتأكيد لا. أنا لا أعتقد أن أبي يهتمّ أدنى إهتمام بما أفعله. لكنكَ تعرف تماماً كيف سيتصرّف أصدقائي وزملائي والصحف. فما الذي لن يقولوه! سوف يتكلّمون، ويكتبون الكثير، وذات يوم، سوف أجد نفسي على رأس جمعية للبرّ والإحسان... حيث لن أكون على اتصال مباشر بالأطفال وحيث سيُتاح لي أن أفعل ما فعلته هنا تقريباً، لا أكثر.

- بالتأكيد، فأنتِ لست مخطئةً تماماً، قال تايرون ستروم موافقاً.

- إذاً... هل تساعدني؟

كان في صوت نيقادا ونظرها تصميم لم يكن فيهما من قبل.

كان قريباً جداً منها، يحدّق بها برصانة. ثم أعلن بهدوء:

- أظن أن طفلاً سيكون جواباً على مشكلتك، نيقادا. ولكنْ، لماذا لا يكون الطفل طفلك؟

ونظرت إليه بتعجّب. ثمّ، برفق، بكثير من الرفق بحيث لم تكن تدري ما يحدث، طوّقها بذراعيه وجذبها نحوه.

- هل تسمحين لي بأن أنجب منك هذا الطفل؟

وأطبقت شفتاه على شفتيها فحدث كأنّ العالم بأسره توقّف عن الدوران. هذه القبلة، هي بالضبط قِمّة مشتهاها؛ إنها حقاً ما كانت تنتظره في أحلامها؛ إنها الفكرة التي رسمتها عن الجنّة!

كانت شفتاه في البداية غاية في النعومة، كما لو أنّه يخشى

أن يُجفلها. ثمّ، إذ أحسّ بها تلتصق به، شدّها إليه أكثر وصارت قبلته أكثر اتّقاداً وإلحاحاً.

صارا جزءاً من الشمس الغاربة، من الهضاب الورديّة ومن كل ذلك الوادي الرائع. كانت نيغادا تشعر وكأنّ تايرون ستروم يمتصّها بأسرها.

رفع رأسه وحدّق بعينيها المتألّقتين، في حين لم تقوَ نيغادا، المرتجفة الشّفتين، إلاّ على تمتمة الكلمات التي لم تستطع حبسها:

- أحبّكَ. أنا... أحبّكَ.

- وأنا أيضاً، أحبّك. يا حبيبتي، هل تعتقدين حقّاً أنّني سأسمح لك بالإعتناء بغير أطفالي؟

- خُيّل إليّ أنّك... ستعيدني.

- حتى قبل أن أتي بكِ الى هنا، كنتُ أعلم أنك مقدّرة لي وأنه ليس بمقدورك العودة الى الحياة التي عشتِها قبل لقائنا.

- ولكنْ... كنتَ تكرهني... كنتَ تمقُتني... وقد كنت ظالماً للغاية.

- لأنّني كنتُ أعرف أنكِ مختلفة، يا حبيبتي. ولم أكن أعلم أنّك تألّمت الى هذا الحدّ.

وقبّلها مرّة جديدة فتعلّقت نيغادا به. ولمّا أحسّ بها ترتعش بين ذراعيه، طمأنها قائلاً:

- لن تكوني وحيدة بعد اليوم، أعدكِ بذلك، يا حبيبتي. فأنا أيضاً بحاجة الى حبّك.

- وماذا لو صرتُ يوماً ما... عبئاً عليك، ماذا لو اكتشفت انني أحبّكَ زيادة عن اللزوم؟

إبتسم تايرون ستروم.

- لن تحبّيني قطّ كفايةً. أنا لا أرغب في حبّك فقط، يا حبيبتي، بل في كل ما تملكينه: عيناك...

ولامسهما بقبلة.

... وشعرك المتوهّج...

ولامس بيديه ضفائرها البرّاقة المنسدلة على ظهرها.

- ... لو تعلمين كم تألمتُ من البقاء بعيداً عنك ومن عدم لمسكِ، أضاف.

وقبّل وجنتيها، ودائرة فمها وشفتيها.

- ... أودّ لو أغطّي بالقُبَل جسدك كلّه وخصوصاً قدميك الصغيرتين المخضّبتين بالحنّة، يا رائعتي الصغيرة.

وتمتمت نيغادا، متألّقة العينين، وهي تخبّىء وجهها في ثنية كتفه.

- أحبّك وأرغب في أن تحبّني. ولكنْ... كيف لي بتخطّي... الراقصة؟

وحانت من تايرون ستروم حركةٌ نزقة كما تحت فعل المفاجأة. ثمّ، مرّر أصابعه تحت ذقن نيغادا وأدار وجهها نحو وجهه بشيء من السلطة.

- الراقصة؟

وضحك ضحكة خفيفة إذ رأى تعبير وجه الشابة.

- أنتِ غيرى! أواه! يا للسّخف، يا حبيبتي. أنت غيرى ولم يخطر ذلك في بالي قط.

- كانت مثيرة... للغاية، ورأيتُ الشيخ... يقدّمها لكَ.

- نعم، هذا ما رأيتِ. ولكنْ، لو أنكِ تعرفين أكثر عن هذه المنطقة، لعلمتِ أنّ ما هو بشكلٍ من الأشكال زينة البيت المغربيّ يقدّم للضيف بصورة آليّة.

وطَبَع قبلة على جبين نيڤادا ثم أضاف:

- لقد قدّم الشّيخ الراقصة للضيف الذي أراد تكريمه، وكان ذلك بادرةً منتظرة منه، ولياقةً واجبة. بيد أني كنتُ مجبراً، من جهتي، على رفض هذه الهدية السخيّة.

- ... رفضتها؟

والتمعت عينا نيڤادا، فيما ارتجفت شفتاها اللصيقتان بشفتي تايرون ستروم.

- لقد رفضتُ، يا حبيبتي، لأنّني كنتُ منشغلاً بشخص آخر. شخص شرير للغاية، إلاّ أنه لا يمكن مقاومته. شخص كنت أحبّه منذ ذلك الوقت، بالرغم من تمسّكي بمقاومة هذه الحقيقة.

- وأنا أيضاً... كان عليّ مقاومة ذلك. لم أكن أريد الوقوع في غرامك. غير أنني لمّا كنتُ أفكّر في الراقصة...

ومن جديد خبّأت وجهها في كتفه فسألها تايرون ستروم بهدوء:

- ماذا فكّرتِ بصددها؟

- شعرتُ أنني لن أقوى... على منافستها... إلاّ أنّني أردتُ أن تحبّني كما ظننتُ أنك تحبّها.

- يا حبيبتي، إنّ الحبّ الذي بيننا مختلف تماماً عن الذي يمكن للراقصة - أو حتى لأيّة إمرأة - أن تقدّمه لي.

وضغط بذراعيه بشدّة حول خصرها.

- لقد فتّشتُ طيلة حياتي عن امرأة أستطيع أن أحبّها كما أحبّكِ. ربّما لأنّني عشتُ كثيراً في الشرق، أردتُ أسرها، أو الإستيلاء عليها إذا شئتِ. كنت أريد أن أتأكّد من أنها لن تكون لأحدٍ سواي.

- أنا... أحبّك، صرخت نيڤاد رافعةً رأسها نحوه. أحبّك... حبّاً كلّياً، من كلّ عصب في كياني... ولن أكون ملكاً لغيرك أبداً.

- لمزيد من الأمان، سوف أعمل على الإحتفاظ بك هنا ومنعك من رؤية أيّ إنسان سواي. حتى أنّني سأمنعكِ من الخروج من دون اللّثام.

- سوف أقبل بما تقول، إن كنتَ أنتَ ترغب في ذلك.

- حقّاً؟

- كلّ ما أريده، هو أن أكون بالقرب منك، أنت تملأ حياتي كلّها ولا وجود لشيء إلاّك أنت... أنت... أنت...

وشرب هذه الكلمة الأخيرة بتقبيلها بشهوةٍ فقدا معها أنفاسهما.

كانت الشّمس المائلة الى الإحمرار تبدو وكأنّها تنعكس في عينَيْ تايرون ستروم.

- أهواكِ بألف طريقة وطريقة، قال، وبالرغم من أنني أودّ

www.rewity.com/vb

بشوق أن أحتفظ بكِ لي فقط، فإنّي لا أنسى أنّ ثمّة أموراً كثيرة عليّ القيام بها.

- أيّ نوع من الأمور؟ سألت نيڤادا بتخوّف.

- أهمّ تلك الأمور، في الوقت الحاضر، هو حبّنا المتبادل، أجاب تايرون ستروم. لكنْ، إعلمي منذ الآن أنّ منصباً عُرض عليّ وأعتقد أنك ترغبين في أن أقبل به.

- وما هو هذا المنصب؟

- إنّ الرسالة التي تلقّيتها بالأمس مصدرها وزارة خارجية بلادي. فيها يطلبون منّي أن أبقى في المغرب سنةً على الأقل، مراقباً للأحداث التي من المنتظر أن تحدث قريباً.

- أيّة أحداث؟ سألت نيڤادا بدهشة.

- يتوقّع البريطانيُّون أن تحاول فرنسا احتلال المغرب. من الطبيعي أنّ لا شيء رسميّاً. ولكنْ، في هذه الحالة، ونظراً لعلاقاتي المميّزة بأهل المغرب، فمن البديهي أن أتمتّع بحق التجوّل في البلاد كما يحلو لي. وهكذا، فإن التقارير التي سأتمكّن من إرسالها الى انكلترا ستكون ذات أهمية ديبلوماسيّة.

- هل بإمكاني مرافقتك؟

- هل تعتقدين أنني قد أقبل بالمهمة لو كان الأمر عكس ذلك؟

- يبدو لي غاية الغرابة والروعة أن أتمكّن من العيش وإيّاك هنا، بين هذا الشعب الذي صرتُ أحبّه. وسوف تعلّمني لغة البلاد، ختمت بحماس.

- هناك الكثير أعلّمك إيّاه، قال تايرون ستروم. ولكن سأعلّمك أولاً أن تُحبّيني.

- أحبّك منذ الآن بشكل يستحيل معه أن أحبّك أكثر!

- أواه! أؤكّد لكِ أنكِ لا ترين سوى قمّة جبل الجليد!

يا حبّي العزيز، أنتَ غاية في الجمال، ويقول لي شعرك الناريّ إنّ في داخلك شعلة متّقدة متوارية تماماً أرغب في إلهابها وتأجيجها لي وحدي.

ألقت نيڤادا بذراعيها حول عنقه وجذبت رأسها نحو رأسه.

- علّمني أن أحبّك. علّمني أن أحبّك كما تشتهي. لم أكن أعلم بإمكان وجود رجل مثلك، رائع الى هذه الدرجة، مذهل وعجيب. هل أنتَ أكيد من أن هذا ليس حلماً... ومن أنني لن أستيقظ ميتة من العطش في الصحراء؟

أغرق تايرون ستروم في الضحك إذ قرأ القلق على وجهها. ثمّ رفعها بين ذراعيه ووضعها على الأريكة، بين وسائد الحرير.

نزع قرطَيْ أذنيها وفتح قفطانها ليقبّل عنقها.

- أحبّكِ، قال. أحبّكِ كما لم أحب إمرأة أخرى أبداً. إنّ بشرتك شبيهة بزهرة المغنوليا.

- قبّلني... قُلْ كيف ينبغي عليّ أن أحبك.

كان الهوى يُسبغ على صوت نيڤادا عمقاً كذاك الموجود قليلاً في صوت تايرون ستروم.

قبّلها بوحشيّة، بشبق، بعنف. وأخيراً، استولى عليها، وجعلها أسيرته مدى العمر. لم تعد نيڤادا تملك نفسها، بل

صارت جزءاً من تايرون ستروم، مستعدّةً للإنصياع لأدنى رغباته ومقاسمته الهواء الذي تتنفسّه.

وراحت نيفادا تلصق جسدها بجسد تايرون ستروم، في حين استسلمت لملامسة يديه الجامدتين عبر قفطانها الحريري الرقيق. كان الشعور في غاية الإثارة بحيث أحسّت وكأنّ ناراً تجري في عروقها وتنطلق قُبَلاً شبيهة باللّهب.

- أحبّكَ...

حتى أنّها لم تعد تعرف إن كانت قد نطقت بهذه الكلمة بصوت عالٍ أو إذا كانت فكّرت فيها في سرّها.

- يا إلهي! كم من الحب أكنّه لكِ!

تايرون ستروم أيضاً لم يعد صوته إيّاه. صار أبحّاً للغاية بفعل الرغبة الأكّالة.

وفجأةً، بينما كانت نيفادا تتعلّق به بوَلَع، نهض وأفلت من عناقها، فنظرت إليه بقلق.

- ماذا في الأمر؟ هل ثمّة شيء... على غير ما يُرام؟ سألت.

- كل شيء على ما يُرام، يا معبودتي.

- ولكنْ لا! قالت معترضةً. لماذا لم تعد تقبّلني؟

وابتسم تايرون ستروم.

- سوف نخرج.

- نخرج؟

- نعم. لِنذهب لرؤية الأب فرايزر. ينبغي أن يزوّجنا، يا حبيبتي، إلاّ إذا كنتِ ترغبين في أن أعاشرك قبل أن تصيري إمرأتي؟

- هل بإمكاننا الزواج الآن... في الحال؟

- أواه! بالتأكيد، حسب طقوس الكنيسة الاسكتلنديّة. على كل حال، من الخطر عليك أن تمكثي معي تحت سقف واحد...

كان لا يزال يبتسم. وجذب نيفادا، التي ما ان نهضت حتى رفعت وجهها نحو وجهه قائلةً:

- إنّ هذا الخطر لا يزعجني، غير أني أريد أن أكون إمرأتك الى الأبد.

- إنها أيضاً أغلى أمانيّ، أجاب تايرون ستروم. وعندما ترتبطين بي، يا حبيبتي، لن تتمكّني من الفرار، ولن يكون بإمكانك العودة الى حياتك السابقة.

كان ينكّدها بلطف، إلاّ أنّها أجابت بكثير من الرصانة:

- لا أتصوّر شيئاً أروع من الحياة معك، معك وحدك.

- .... ومع أطفالنا، أضاف تايرون ستروم.

- أواه! نعم، سوف يكون لنا العديد من الأطفال، صرخت نيفادا. لن يعرفوا الوحدة التي عانيت منها أبداً؛ كنتُ شقيّة لأنّ أحداً لم يقبل بمحبّتي، فقد كنتُ شخصاً زائداً. لكنّ الأمر سيكون مختلفاً بالنسبة الى أطفالنا.

- نعم، يا حبيبتي، وكلّ ذلك لن يتكرّر. أما الآن، فاسرعي واحضري ما ترتدينه و... بحق السماء، لا تَنسَيْ اللّثام، وإلاّ جازفنا بمجابهة دزينة من المشايخ على الأقل، كلّ منهم يتحرّق لرؤيتك في حريمه.

- أريد أن أكون... في حريمك أنت... حيث لا إمرأة سواي!

أضافت بسرعة أمام هيئة تايرون ستروم السّاخرة. وإذا حدث

أن نظرتَ الى إمرأة أخرى... فسوف أقتلع عينَيْك... أو أضربها حتى الموت!

وانفجرت نيڤادا ضاحكةً ووضعت شفتيها على شفتيه.

ـ هل مازلتُ تلك الساحرة؟ سألت بصوت خافت.

ـ أنتِ رائعة! فاتنة! لا تقاوَمين! وأنتِ في الوقت نفسه، إمرأة بحق.

كان ذلك الجوابَ الذي تتمنّاه. فتنهَّدت تنهيدة إنفراج.

ـ أنا إمرأتُك، تمتمت. الى الأبد... أواه! أتوسَّل إليك، أحبك كثيراً... عيل صبري... فلْنُسرع لرؤية الكاهن.

ومرّةً أخرى، وضع تايرون ستروم شفتيه على شفتيها فاسترخت نيڤادا تحترق بالنار التي تلتهمهما معاً. وذابا في روعة الوادي، بين القَصَبات والهضاب الورديَّة، في الشمس الغاربة والهواء الآتي من الصحراء. استسلما لتلك النار المتفجِّرة من أعماق حبِّهما. وشرعا يسبران معاً كنه ذلك الكمال الغريب الذي أنعمت به الآلهة على هواهما.

ـ أنتِ ملكي. قال تايرون ستروم بيقين. أفكاركِ ملكي، قلبكِ ملكي، وجسدك ملكي أيضاً من قمَّة الشعر الذي يزنّر وجهك الفاتن الى أخمص قدميكِ الصغيرتين الجميلتين.

ـ أحبكَ! أعبدك! تمتمت نيڤادا.

وتكسَّر صوتها على الكلمات الأخيرة التي ضاعت في قبلة تايرون ستروم السَّاحرة. وشعرت نيڤادا بنفسها مكبَّلة به كلياً بلذّة لا توصَف.

www.rewity.com/vb

بلا عنوان

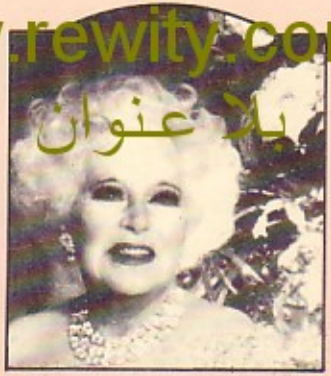

بربارة كارتلاند كاتبة معاصرة بلغت مبيعات كتبها حوالي ٥٠٠ مليون نسخة في نحو ٢٠ لغة، تضاف إليها اليوم اللّغة العربيّة. وسرّ نجاح الكاتبة أنّها تأسر قلوب قرّائها في كُلّ قصّة من قصَصها.